تانجو و موّال

رواية

مي خالد

دار العين للنشر

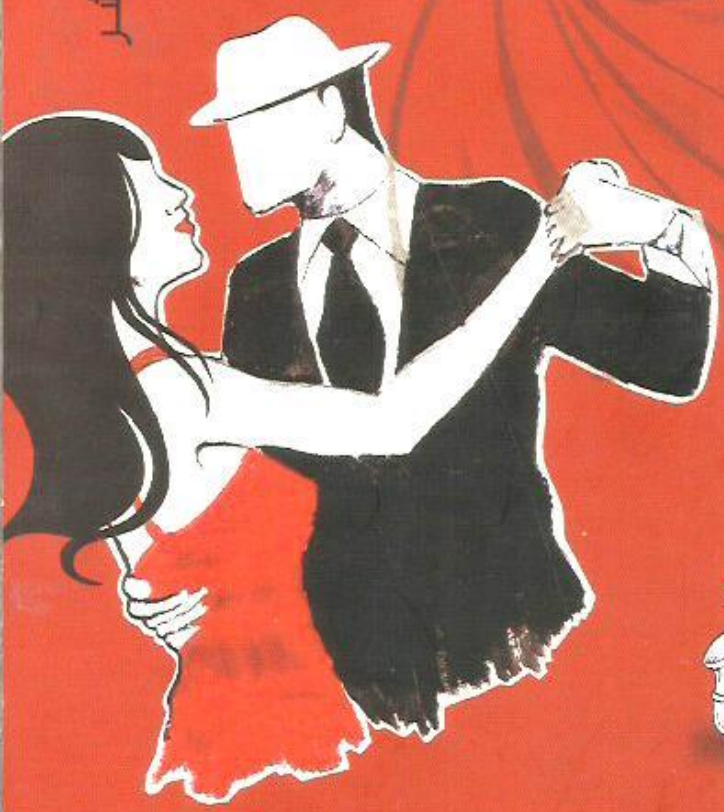

تانجو وموّال

تانجو وموّال

(رواية)

مي خالد

الطبعة الأولى / ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة

تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥

WWW.elainpublishing.com

الهيئة الاستشارية للدار

أحمد شوقي

خالد فهمي

فتح الله الشيخ

فيصل يونس

مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

فاطمة البودي

الغلاف : بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١١/١١٦١١

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 122 - 3

تانجو وموّال

رواية

مي خالد

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

خالد، مي.

تانجو وموال: رواية/ مي خالد.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١١

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١٢٢ ٣

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ١١٦١١ / ٢٠١١

إليـها..

الواثقة في شموخ
المتثنية في دلال
المرحبة بالوافد
المودّعة للرّاحل
التي ألهمتني منذ سنواتٍ عشرين
وظلّت تلـــح
عليَّ أن أجعلها محورًا لقصة..
آلة "الكونترباص المتشكّلة على هيئة تكوين فني
لجسـد امرأة
في ساحة دار الأوبرا المصرية..

رُوي عن أحد حكماء العرب أنّ رجلاً سأله يومًا: "متى أتكلّم ؟" فقال: "إذا اشتهيت الصّمت" وعاد الرجل ليسأله: "متى أصمت؟" فقال: "إذا اشتهيت الكلام

إلى من صمتوا حين وجب الكلام !

1

"وأول كلامي الصلاة على الحبيب
كنز الأرامل واليتيم والغريب
يارب يكون لنا في الزيارة نصيب"

كنت على وشك الهروب مساء أمس. أعددت الخطّة (أ) والخطة (ب) الاحتياطية، استنادًا إلى مشاهداتي السّينمائية. الخطة (أ) ضرب طبيبة نوبتجية الليل بآلة حادة لتغييبها عن الوعي، ثمّ سرقة معطفها، وارتداء سماعة الكشف ثُم الخروج في ثقةٍ من الباب الرئيسي. أما الخطة (ب) فهى الاختباء تحت أطنان القمامة، وبقايا الأطعمة في العربة نصف النقل أثناء خروجها. ومع ذلك لا أثق أنني سوف أحتمل الشوكة الضخمة التي يُعملها رجال الأمن في الحمولة ليتأكدوا من عدم وجود أشخاصٍ، أو بضائع مهربة.

ينشط هاجس الهروب في المساء، قبل اجتماع بعضهم حولي مباشرة،

وغرس تلك الحقنة في ذراعي فتسيح أشكالهم، وتتداخل أصواتهم. أثق أن كلامهم محض هذيان، وأنني لست في حاجة لوصايتهم، كما أنني لست فأرا لتجاربهم. صحيح أنه يحق للعازف أن تفلت منه بضعة نشازات، ويواجه عدة إخفاقات حتى يظهر للجمهور باللحن الأكمل، لكنني لست آلتهم الشخصية. كما أنني أفهم بعضا مما يقولون، فمن فَرط سذاجتهم لم يدققوا في التاريخ الشخصي للحالة ليعرفوا أنني كنت ذات يوم مثلهم.. طالبة علم نفس. حقيقة لم أكن التلميذة الفذة التي تهوى ما تدرس، لأن التحاقي بتلك الكلية كان فقط نزولاً عند رغبة "آريا"، لكن في دماغ كل دارس لأي علم صفحات أو سطور مطبوعة، لا تتلاشى بمرور الوقت، بل يزداد اعتزازه بانغراسها أكثر في تلابيب مخه كلما بعُد الزمن. سمعتهم مرة يقولون "هوس اكتئابي ومرة أخري يقولون "فصام"، ثم أخذت الكلمة تتكرر بتنويعاتها كل حسب ميله الشخصي في نطقها: "فصام.. شيزوفرانيا.. سكيتزوفرانيا"

المهم أن كبيرهم أمر بإعطائي تلك الإبرة اللعينة، بعدما رفضت تناول الأقراص التي كانت تعرضها عليّ ممرضة الصباح.. فألقى بجملته في لامبالاة قبل أن يختفي للأبد: "إدوها حقنة "هالدول" لحد ما يوصل الدكتور شامل من السفر! " ألم يدر أي منهم أن الدكتور شامل ذاته من مُسبّبات الهياج؟!

وحين عاد النفير أقصد الدكتور شامل، ألقى نظرة سريعة عليّ ذات مساء، بعدما كانت قد يئست كل محاولاته معي طوال الأيام الأربعة الماضية.

ثم أعاد ما قالوه مثل اسطوانة مشروخة: "استمروا على"الهالدول" لحد ما يجي مروان!"

ما..را..وان؟؟ دو..ري..مي؟؟ ما..رااا..واااان؟؟

"اللّيل كلّه مكاسب، بس فيه النوم
والنّوم راحة جسد بس عليه اللّوم"!!

* * *

اليوم أفتح عينيّ على إحساسٍ مختلف. قلبي لا ينوء بذلك الثقل الذي يفتتح نهاري. الصباحات هنا لا بأس بها. لِمَ لا ألغي فكرة الهروب مؤقتًا، وأستمتع بهذا النور المشمس الذي لا أشهده إلا وهو على وشك الرحيل، لأظل منحبسة في تلك الغرفة التي تشبه الاستديو لحظة انغلاق أبوابه المصفحة ورائي حين تضاء اللمبة الحمراء بأعلاها مُعلنة أنني "على الهواء"؟ الاختلاف الوحيد هو أنني حين كنت أجلس أمام المايك كنت أُرسل نبرات صوتي وتنحبس مني الروح. أما الآن فروحي مرسلة.. وبإرادتي أحبس الصوت!

لماذا حرمت نفسي بعد اليوم الأوّل مباشرة لوجودي بهذا المكان من تلك الأصوات المتناغمة على اختلاف مصادرها، وتركت فكرة الهروب المسائية تسيطر على رأسي؟ ربما لخبرتي السلبية مع جلساتي الصّباحية فوق هذه الدكة الخشبية بالحديقة!!

أحال عليّ الدكتور شامل بعضًا من مساعديه في محاولاتٍ يائسة

لاستنطاقي. أُقسم أنه لو عرف أي منهم ولو جزءًا مما يحويه دماغي من حكمة العالم وخلاصات التجارب، لجلس ساكتًا فوق هذه الأريكة ووقفت أنا في وسط الحديقة أطلق ضحكة هستيرية عالية.

لا أدعي امتلاك الحكمة المطلقة.. هي فقط معارف، وأقوال مأثورة جمعها رجال غيروا العالم، وأذيعها كفقرات للربط بين البرامج، وأقبض في مقابلها أجرًا إضافيًا في البرامج الإذاعية الموجهة. كما أفعل الشيء نفسه في البرنامج الموسيقي لكن مع خلاصات تجارب جهابذة الموسيقى العالمية حتى صرت أرى البشر والأحداث مثل آلات وقوالب موسيقية، وأصبحت هذه هي وسيلتي السرية في فك شفرات الدنيا.

أشعر أن أولئك الأخصائيين النفسيين حديثو العهد بوقائع الحياة. آلات بدائية لم تصل لطورها النهائي، ومن وصل منها إما به وتر مقطوع أو أوكتاف ناقص. الدكتورة شهيرة.. أحبالها الصوتية في أنفها، ليس عن عيب خلقي بل عن عجرفة لا تدعوك بأي حال إلى محاولة الاقتراب. فكيف لها أن تنزع الغل من قلب الغير إن كانت لا تطيق نفسها؟ دكتور إبراهيم.. نيته الطيبة للتقرب ومحاولة إفهامي بأنه يمكنني التعبير بأية لغة، تجعله يقوم بحشر كلمات إنجليزية في عباراته، فلا أستخلص منها سوى تلك الحروف المشوهة والتركيبات الممسوخة التي تعلو ترددتها حتى تكاد تفتك برأسي. الدكتورة منال.. تواجهني بنصف عين ونصف قلب ونصف روح. فالأنصاف الباقية، وفقا لما سمعته من حواراتها الجانبية مع زميلتها، متروكة بداخل طاجن أرز معمر بفرن بيتها، وطفل ينتظر

الرضعة القادمة، وخادمة تتشكّك في أمانتها. أما الطامة الكبرى فكانت مع الدكتور شاهر الأعسر الذي ينطق اللام والراء كالياء، فما إن قدم لي نفسه بـ"الدكتوي شاهي الأعسي حتى اختفت في رأسي بقية أبجديته، وتحولت إلى ياءاتٍ مُتشابكة!

انظروا من تتكلم!!! نزيلة في مصحة نفسية تعاني من فقدان القدرة على الكلام، وتسخر من تركيبات نحوية خاطئة أو لثغة بسيطة عند من يُفترض أن يكونوا معالجيها! لا ليس الأمر كذلك، فالمشكلة تكمن في أنني أشعر بأنهم قد أتوا لكي يسمّعوا ما حفظوه في دروسهم، وأنهم لم ينفتحوا على نصف ما شاهدته. الوحيد الذي يملأ الدماغ هو الدكتور معتز. عمره الوسط الذي يعفق وتر الشباب والنضج معًا. انغراسه في قاع الحياة، إضافة إلى أسفاره ودرجاته العلمية من دول العالم "الأول" سيمفونية كلاسيكية عالمية بنغمات شرقية. إلا أنه كالمدرب الماهر على آلة ما. يلقى تلميذه بالعلم ولا يبدأه بالرفق، فيستوحش التلميذ العلم ويفقد الرغبة في التعلم! لذا أفقدني الشغف بأن أبوح له بأنني قادرة على الكلام، وأن كل الحروف والنغمات تدور في رأسي مثل اسطوانة عالية الجودة. فقط لا يوجد الجهاز المناسب لتشغيلها!

لا بأس أبدًا بهذه الحديقة الصغيرة وأصواتها المتناغمة. حفيف وريقات الأشجار مع هفيف النسيم والزقزقة. احتكاك بعيد لكاوتشوك عجلات مارقة على طريق سريع يمنح إحساسًا بالانطلاق والحرية. الإيقاع المعدني بالرنة المألوفة لبائع أنابيب، يمنح شعورًا بحميمية الأحياء السكنية. اختلاط

أصداء خفيفة للهو طفولي من حوش مدرسة مع زقزقة العصافير يشرح القلب ببهجة البراءة.

سأُشير للمرضة بيديّ أنني أرغب في تناول الأقراص بدلاً من الحقنة، فقد لا يكون للأقراص تأثير الحقنة نفسه في تشويش الأصوات وإثقال الأجفان وجفاف الحلق. إن وافقت ستسهل مغافلتها والتخلص من بعض أو كل الحبوب، حتى أظل في حالة يقظة تكفل لي الفرار، إذا ما عاودتني فكرة الهرب ثانية. وقد أحتاج هذا لغرض آخر أيضا. الذاكرة! فمن بلاهتهم أنهم تفوهوا ببضعة أعراض جانبية لجلسات الكهرباء التي لوحوا بإعطائها لي في حال رفض العلاج، وأنها قد تودي بجزء من الذاكرة. كيف للدكتور "شامل وهو من هو أن يستعين بمثل هذه المجموعة من المساعدين المنفرين؟ إن ضيقي منه منذ بواكير طفولتي لم يمح نظرتي الداخلية له بأنه كائن أسطوري. مايسترو ذو عصا غليظة يحركها أو يوقفها؛ لينهي سيمفونية عظمى، أو حياة إنسان!

عادة ما تخطف أنفاسنا المحاولات الدؤوب على الفرار من السجون في الأفلام السينمائية، متمنين النجاح للعملية، حتى وإن كان الهارب لصا سابقًا أو حتى قاتلاً: "الهروب من ألكاتراز "الكونت دي مونت كريستو "حب في الزنزانة" "الهروب الكبير" لكن هل شعر أي مشاهد بالانفراج لهروب مختل عقليًا من مصحة للأمراض النفسية؟

ومن قال إنني مختلة؟ وكيف أثبت أنني لست مريضة بالفصام، بحسب تشخيص أولئك الغرباء الذين أخذوا أقوال بعض الشهود، وجمعوا جزءًا

من الأدلّة مثل رجال تحقيقات، بعدما تركني دكتور شامل لهم؟!

في جمال البدر صلّي
على النّبي اللّي نوره يبان
صلاة النبي تسلّي
هيّ الفايدة والراسمال

أنا التي تقرر إن كنت مهووسة أم لا، فلقد كنت أتلصّص على صفحات المناهج التي تركتها منذ ما يقارب العشرين عاما، مثل لصٍ يحوم حول جريمته. جريمة اقترفتها في حق "رباب" "فيولا" أنا، حين صممت "آزيا" أمي على أن أدرس علم النفس لتحقيق أمنية قديمة خاصة بها.. وإن كانت كلية "رياض الاطفال" التي كنت أصبو للانتساب إليها، لن تمنحني على حد قولها اللاذع، سوى شهادة دادة! لا أدري لماذا ظلّ يطاردني مادرسته وكأنه كان يخشى على نفسه من الذوبان، فيظهر لي مقال من هنا وموقع إلكتروني من هناك، أو حديث إذاعي، أو تليفزيوني عن تلك الاضطرابات الوجدانية التي تحير البشر؟!!

هل يعتبرون ما حدث أثناء تقديمي لحلقة "أنغام خالدة"، التي سبقت التحقيق مقياسًا لانسحابي وتدهور مستوى أدائي الوظيفي مثلا؟ فقط كنت أنفذ ما قاله الحكماء وعظماء الموسيقى: "الصمت أكثر موسيقية من أية أغنية"! جملة بدأت بها الحلقة وناولت مهندسة الصوت بضع سيديهات لتشغلها، ولما كنت أعرف شغف هذه المهندسة بتلقي تليفونات خاصة من أخواتها وكل عشيرتها، وإلحاحها في الاطمئنان التليفوني

على أولادها الأربعة، فقد أقنعتها في مودة عفوية أن تترك لي السيديهات لأشغلها بنفسي، وأن تذهب لإنجاز مهامها العائلية من خلال المحمول خارج الاستوديو لضعف الشبكة بداخله. وبعد عشر دقائق اشتعلت اللمبات الحمراء مرة أخرى ليتسرب صوتي الهادئ إلى المايك بالجملة التالية: "يرسم الفنان التشكيلي لوحاته على القماش، أما المؤلف الموسيقي فيرسم لوحته على الصمت" شغلت التراك الثاني ثم أنهيت الحلقة بأنه: "يتحتم على كل شخص أن يقتني نغماته الخاصة، وأعظم تلك النغمات هو الصمت التام" بعدها مباشرة انقلب الاستديو رأسًا على عقب وتوالت المكالمات من الكنترول ورئيسة الشبكة ومكتب رئيسة الإذاعة. وكان التحقيق في اليوم التالي، لأن السيديهات التي كنت قد قمت بتشغيلها بين تلك العبارات المأثورة..كانت صامتة تمامًا!!

قسّم يا ناي غنْوتي وأنا أقول يا ليل تاني
للناس بغنـي، وما في قلبـي على لساني
وياما فيه ناس كتـير بْتقاسـي، وبِتْعاني

ثمَّ لماذا يعتبرون ما بدر مني في المسجد غرابة في الأطوار أو شكلاً من أشكال الهوس؟ فليعتبروننى مثل المصريين القدماء الذين كانوا يُقدِّسون الآلهة بالرقص في المعابد، أو كالمسيحيين الذين يرنمون على نغمات الأورغن في الكنائس، أو حتى مثل المريدين من الصوفية الذين يذكرون ويتهللون بكامل أجسادهم حتى يسقط الكثيرون منهم، بل ويفقدون الوعي وهم في حالة عالية من الانتشاء والانفعال. لماذا إذن يعتبرون موّال المسجد هوسًا وليس انفعالاً؟!

حلوة حلـوة، وبتْهشتك.. حلّوة حلّوة
اوعي تغيبي يوم عن عشّك.. حلوة حلوة
يـا أُمّـــورة يـا عـصـفـورة..
أنـا عـايـزاكـى تـكـوني مبسوطة
خلّـي الضحكـة تبـان علـى وشّـك
هـشّـك بِـشّـك.. هـشّـك بِشّـك

وحين دخلت مرحلة الصمت الاختياري صنفوه اكتئابًا، واحتجزوني مع فاقدي العقل، مع أن الأمر الشائع هو أنه إذا تم العقل نقص الكلام. فلم كل تلك الحيّل والألاعيب العلاجية والعقاقير الملونة التي تكهرب الجسد والدماغ؟ الأمر الوحيد الذي ربما يكونوا محقين فيه هو النغمات والمواويل التي تلح على رأسي ولا تهدأ، حتى أثناء النوم، فيأتيني الزار والمولد والسيمفونية والطقطوقة والكونشيرتو، على هيئة أحلام صاخبة تتداخل فيها القوالب الموسيقية بلا تناغم أو تآلف. لكن لم يتنصت أحدهم على رأسي ليدركوا كل هذا النشاز. ليتهم يدركون أنني أحتاج أن أفصل كل نغمة عن الأخرى ثم أجمع الكوردات المتآلفة لأستمتع بالهارموني. لو يعهدون بي إلي مايسترو متمرس حاصل على شهادة من معهد موسيقي عالمي أو كودية زار مثل سميحة السودانية لتلفني بأمومة حانية وتصالحني على الأسياد فيتكون الهارموني بين الروح والجسد. أما كل أولئك المرتابين بنظراتهم الفاحصة وعقاقيرهم ووخزاتهم فلست في حاجة إليهم حسب المثل القائل: "لماذا تنفق الأموال على العلاج النفسي بينما يمكنك الاستماع إلى قداس من مقام بي مينور"؟!

اخفتي قليلاً أيتها المواويل. لسنا في مولد سيدي "إبراهيم الدسوقي نحن في مستشفى. مصحة..... نَفْ.. سِ.. يّة!

أنا اللّي بنصح الناس، لكن عايز متين ناصح
كنا تلاتة أربعة، ومات منّنا النّاصح
يا عيني دا الزّهر عندي بيعاند النّاصح
دا طـابـت زرعـة الـعـبـيـط
واللّـي هَـافـت زرعـة الـنّـاصـح!!

* * *

2

Radio Cairo Presents: ASK ARIA

البرنامج الموسيقي منتصف ليل القاهرة

This is the Europe Service from Radio Cairo

ليست هلاوس، ولا ضلالات سمعية. مجرد أصداء لجُمل إذاعية تناثرت ذات يوم عبر الأثير. إنها فقط طبيعة أي عمل هي التي تلح على رأس وأذن صاحبها، مع وجود عطل فني بسيط. فقد تداخل إرسال البرنامج الأوروبي المحلي مع إرسال البرنامج الموسيقي، ثم تداخلت البرامج الموجهة على كليهما. يحتاج رأسي إلى مهندس الصوت النوبتجي، ليشغل موسيقى الديسك الرتيبة، إلى أن يأتوا بفني يُصلح الخلل. قد يصاب عقلي بملل خفيف مثلما يسأم مستمعو الإذاعة من موسيقى الدّيسك؛ مقدمة أغنية النهر الخالد، بل جملة لحنية واحدة منها تُعيد نفسها مرارًا وتكرارًا، تكون جاهزة دائما في الماكينة الرئيسية فتدور حين تحدث فجوة بين برنامجين، على اعتبار أنها أخف وطأة على أذن المستمع من الصمت التام. أقسم أنه لو أتى لي الدكتور "شامل بمهندس صوت لشخص حالتي فورًا؛ مجرد فجوة صوتية تملؤها نغمات رتيبة في رأسي.

هيا اجتهدي يا أذني كما حرصت طوال عشرتنا معا على إدخال كل ما هو مرغوب وغير مرغوب إلى عقلي، وفككي التشابك بدلاً من الرضوخ لأسطوانة الديسك المنومة.

Radio Cairo Presents: ASK ARIA

هذا هو الصوت الجريء ذو البحة الفاتنة لأمي "آريا" على خلفية من موسيقى الصالصا في تيتر برنامجها الأسبوعي الشهير "اسألوا آريا" في البرنامج الأوروبي المحلي.

"البرنامج الموسيقي.. منتصف ليل القاهرة.. ساعة من الموسيقى الخفيفة مع فيولا رفعت"

هذا هو صوتي النّاعس الذي يتناسب–على حد قولهم– ورومانسية الليل، والذي يحملني أنا شخصيا على التثاؤب، حين أسمعني بالخطأ في برنامج مُسجَّل. كما أنه في الوقت نفسه قناعي الوادع الذي يخفي ضوضاء روحي. ترى ما قناع الصّوت؟

"الصَّمت"!

This is The Europe service from Radio Cairo

وهذا هو صوت أختي "تغريد" بنبراته الواثقة التي تتبدّل من شقاوة صبيانية، إلى أُنوثة مُفتعلة، إلى رصانة أصيلة، وقتما يتراءى لها، طبقًا لطبيعة

البرنامج الذي تقدمه في الإذاعة الإنجليزية الموجهة. وهذا ما يحدث معنا جميعا فثلاثتنا أنا وآريا وتغريد، نقدم برامج في الثلاث خدمات الإذاعية السابقة لذا تلبكت النبرات وتشابكت الموجات!

لماذا يستكثرون عليّ أن أخفض مؤشر الصوت \صوتي إلى الدرجة صفر؟ مجرد فجوة ساكتة مؤقتة حتى أصرفهم عني؛ الدكتور شامل وجلساته الفردية، وأسئلته المتعاقبة مثل وكيل نيابة، ولعبه بنبراته حتى يصل إلى مقام الصبا الحزين ثم يناولني علبة مناديل كلينكس لإيحائي بأن دموعي على وشك الانهمار، وعادة ماتكون هذه هي الخطوة التي تسبق البوح. وتارة أخرى يتحفني بجلسات علاجه الجماعية التي أخرج منها بكل أوتاري مهترئة تمامًا. فكيف لآلة حالمة مثلي لها صوت ناعم حنون أن تجلس متصلبة على كرسي وسط جماعة من الشكائين بزعم التخلص من أوجاع الروح؟!

تفزعني التجمعات الصاخبة. يدي بيد أمي في أحد الموالد، أو في زار وتغريد أختي في يدها الأخرى. أنظر عن يميني فأجد ماردا نصف عار، يلمع صدره بالعرق ويضع في فمه شعلتي نار. أشهد عن يساري آخر يشبهه في الهيئة إلا أنه ينبطح أرضا فوق لوح مُستَّف بالمسامير، ثم يهب واقفًا في شموخ، ويبدأ بالسير فوق قطع من الزجاج المكسر. أغلق عيني حتى لا أرى خيوط الدماء وهي تتسرب من لحمه بعد أن نهشه الزجاج، وأطراف المسامير، إلا أنني أجده يرفع ذراعيه بزهو ويجمع نقودًا في رق من الحاضرين. تتقافز تغريد وتلمع عيناها بفرحة الفوز بعروسة حلاوة، أو بضرب الشجيع للأوزان الحديدية وتصفيق الحاضرين، ثم تلهث أنفاسها

مع حركة المتمايلين يمينًا ويسارًا في حلقة الذكر. بهجة "الليلة الكبيرة" التي تنعش أرواح الكبار قبل الصغار تحملني على الانكماش والرغبة في البكاء، والدخول في صدر أمي حتى لا أتوه بين كل هذه الأجساد، والوجوه متباينة الأشكال والالوان. "الليلة الكبيرة" بكل زهوها وفرحتها تنتهي بمقطع حزين هو كل ما يتبقى لديَّ منها:

يا ولاد الحـلاااااال.. بنت تايهـة طوول كدة
رِجلهـا الشّماااااال..فيهـا خلخـال زي ده
زحمـة يـا وِلـداااااه...كام عيّـل تـاااااه

أتساءل دومًا عن مصير البنت الصغيرة أم خلخال. هل عثروا عليها، أم ابتلعها المولد؟ لهذا لم أتفاعل وحلقات العلاج الجماعي، التي أقحمني الدكتور شامل النفير عليها. نعم أراه نفيرا عالي الصوت يحمل الناس على الصراخ. في ليال شتوية قارسة، على فترات طفولية متباعدة، كانت تصلني أصوات مضطربة وشهقات لنساء يهرولن على سلم العمارة من خلف باب شقتنا، ثم يرجع صدى الأصوات نفسها من المنور. تنتقل الجارات فزعات من شققهن إلى شقة الدكتور شامل بالدور الرابع، وتتسابق أياديهن على رن جرسه والهبد على بابه. كنت ألمحه أحيانا وهو يخرج معهن بروب المنزل أو ببيجامة وبشعر أهوش وعينين مُحمرَّتين ليكشف على رجالهن أو أمهاتهن وآبائهن المستلقين في سكون على الأسرة. يجزم هامسًا بأمر ما يعلو بعده الصراخ، ويتصاعد مجلجلا في أنحاء العمارة، تعقبه دقات كعوب جنائزية بطيئة ممزوجة بأخرى مهرولة ومصحوبة بأصوات ذكورية تنطق بالشّـهادة الأولى عـدة مـرات: "لا إله إلا الله..

لا إله إلا الله"، تعقبها نهنهات لأطفال وبكاء حار لمكلومات. كل هذا كان يملؤني بالرهبة، ويصور لي ما يحدث خلف باب الشقة على أنه أهوال القيامة. لم أكن أدري حينئذ هل الدكتور شامل هو من أنهى حيواتهم أم أنه كان فقط بوقا لإعلان النهاية؟ في كلتا الحالين كان بالنسبة لي نائبًا لعزرائيل وأغنية للموت. فكيف لي بعد ذلك أن يغلق علينا باب في جلسة فضفضة، أو حتى أتواجد معه ضمن مكلومين آخرين، ولو حتى من باب "من يرى بلاوي الناس تهون عليه بلوته"؟!

إذا كانت الناس تخليني على حالي
أنا اترك هوا الناس من بالي.. واعيش خالي
منين أجيب ناس أشكيلهم على حالي
أنا أوصيك يا مبتلي لم يقعد ف ريح خالي
أقعد ف ريح مبتلي زيك..إن قلت آآآه
يقوللك: كانت على بالي...

الغريب أنني لم أتصور أن عالمًا في صلابته، يمكن أن يستجب لإشارتي الضعيفة للمرضة بأنني أرغب في تناول الأقراص بدلاً من الحقن.

أقراص من ستيلازين.. سيرينيس.. صافينيس.. هالدول.. بدلاً من حقنة واحدة تأتي بها شادية الممرضة. تُناولني الـ "هالدول" في البداية. أشير لها بأن تترك بقية الأقراص لأبتلعها بمفردي. ترفض وتحدثني كمن تكلم طفلة: "يالا يا رباب.. ولاّ يا فيولا هو انت اسمك إيه؟؟ لخبطتي الواحد!".

أتجرعه في بطء على أمل حدوث معجزة تنقذني من الأقراص الباقية، إلى أن ترتفع تدريجيا رنة محمولها الرخيص.."حبيبي وعنية لو في وسط مية "! أداء ردىء وعزف بدائي لأغنية جميلة!

تحتضن المحمول وتلصقه بأذنها، وتبدأ بالتحدث بنبرة خفيضة خنفاء، وتبتعد عني فأتخلص فوريًا من الستيلازين والسيرينيس والصاف.. ي.. ني س...

فيولا الغرام.. يا ملكة الآلات وسلطانة العواطف. يا من لك أمزجة البشر. تتكلمين بشعور العازف، وتكشفين أسرار عواطفه. يضعك على صدره فتحملين على أوتارك دقات قلبه. هاهم يعتقلونك بين جدران أربعة في مصحة نفسية. من سيخلصك سوى آلة تعرف مكانتك؟ بيانو مثلا. هو الوحيد الذي ينافسك في السيادة لذا سيقدر قيمتك ويعرف ما بك. هو الذي تأتي أصابعه الرشيقة بما تشتهين.... الهارموني!

دو.. ري.. مي.. ما.. را.. وان.. مروان؟! هل يمكن أن تكون ذلك البيانو المخلّص؟

يبدو أنَّ القرص الوحيد الذي ابتلعته بدأ يعبث معي. الممرضة شادية تتمايل في دلال وتضحك بصوت يختفي من أذني تدريجيًا ثم تصير هي نفسها اثنتين.. ثلاثة..... لا شيء!!!

اللي معاه فكر ينام به ويصحى به
الشمع يحرق ف نفسه وينور على اصحابه
نام يا خالي نام.. وسيب الفكر لاصحابه

* * *

3

ليه يا طبيب جايبلي المال ..مش حاجة
اسعى وهات لي دوا زين..مش حاجة
بس وقعت مع ناس يا ندامة
طلع البخت مش حاجة

لماذا يا أمي رسخت في وجداني الطفولي تلك المواويل المشحونة بالأسى لتنخر في قلبي الآن مع تكرار دورانها في عقلي؟ أما أنت فطفولة عقلك وقلبك كانت تدق بإيقاع الصالصا المبهج ونعومة التانجو وشقاوة السامبا، ثم تجمعنا الأقدار في ريعان شبابك حين تتخذين من الوجد ولوعة البشر حلية إضافية تزين بهجتك الأصيلة. وأنا الطفلة ذات السنوات الخمس أظل بلا حول تجاه تلك الرهبة التي تلفني، وتظل تصدح في دماغي على هيئة مواويل لا أقوى على إسكاتها أو حتى على خفض صوتها.

يبدو أن الممرضة شادية تنعم بمزاج رائق اليوم، ومجموعة الأطباء أيضًا يتجهون جميعا ربما لحضور اجتماعٍ مهم في مكتب الدكتور شامل على الجانب الأيمن من الحديقة.

"ميعاد الدوا يا جميل! شفتي يا آنسة رباب بقيتي فلة إزاي من ساعة ما بقيتي تاخدي الدوا بانتظام؟؟ يالّا بالشفا! لو بس تفكي عن نفسك كدة وتتكلمي هتبقي عسل! أنا الود ودي آخدك أفك لك العمل اللي معمولك ده!"

مثل اليومين السابقين ألتقط القرص وأتظاهر بوضعه في فمي وأتجرع الماء وراءه، بينما تبقى الأقراص الثلاثة مُخبأة في قبضة يدي إلى أن تواتني أقرب فرصة للتخلص منها. الجميل أن الكل قانع بأن التوليفة الدوائية التي ابتكرتها قريحة الدكتور شامل، هي التي أوصلتني إلى تلك الحالة من السكينة وأخرجتني من كآبة الغرفة إلى رحابة الجنينة.

على عكس كل أولئك الأطباء والأخصائيين، الذين يسيرون مثل سرب النمل خلف الدكتور شامل، أثق أن شادية تود لو تأخذني لأحد المشايخ فقد يجعل الله على يديه الشفاء، ويفك لي لساني المربوط أو أن تستخرج لي تصريحا بساعتين تأخذني خلالهما إلى حضرة لإرضاء سيد من الأسياد ليحل لجامه عن لساني!

حسنة نيتك يا شادية، لكنك مسكينة بجهلك فالجان محبوس هذه الأيام. نحن في رمضان. هكذا تقول سميحة السودانية: "علب البخور تتقفل في رمضان" فالجان ينجذب نحو العطور النفاذة. كما أننا لا نذهب إليها أبدًا في رمضان، بل هي التي تأتي لزيارتنا أو بالأحرى لتناول الإفطار مع دادة عطيات ابنة خالتها. كما أنني لا يمكن أن أجذب الأسياد بملابسي الداكنة هذه فهم يمقتونها، وخصوصًا "نبراوي"، مع أنه يفترض أن يعرفوا

كل شيء وأنني لا أرتدي السواد لإبعادهم بل فقط لأبدو في رشاقة آريا، ولأظهر، مع تضاد الألوان، نقاء وحلاوة بشرتي البيضاء.

آه لو تعرفين يا شادية مدى توطد صلتي بهم، لوسطتني أنت لكي أجعلهم يرضون عنك. تريدين وساطة من منهم؟ سلطان بني ماما أم ياورة بك أم أخته ركوشة هانم، أم جادو ساكن المراحيض أم سفينة أم أحد الخواجات والنصارى؟ هيا قدمي القرابين لأصالحك عليهم، وبصداقتهم تسكنك الطمأنينة وتتصالحين مع خصوم روحك. أنت بالفعل تقدمين لي القرابين ثلاث مرات في اليوم: إفطار – غداء – عشاء. الإفطار يصلح للخواجات والنصارى: جبن رومي، عسل أبيض وزيتون. عليك فقط أن تضيفي إليها البيرة، وشمعة صغيرة على هيئة صليب. أما غداء اليوم فيصلح للروح "سفينة" إنه عاشق للمأكولات البحرية، وسمك اليوم كان ليسعده كثيرا. أما بالأمس فكان الغداء لا يناسب سيدًا غيره؛ ياورة بك! حمام محشي وطبق من الفواكه. كانت سميحة السودانية تذكره كثيرا وكأنها أسيرة لهواه: "ياورة عايق وصاحب مزاج وشكل الحمام الهزاز. يتلفت شمال ويمين ويتعاجب بريشه الملون" ثم تبدأ بمداعبته بالموال وبمخاطبته بالعين والحاجب وكأنها تغوي حبيبًا مُتدللا:

حبك رماني يا ياورة.. حبك رماني
الشوق رماني يا ياورة.. الشوق رماني
جميل يا بيه.. ملامحه حلوة
لابس طربوشه جميل يا بيه
في إيده خاتم جميل يا بيه

تفلت مني ابتسامة تظنها شادية علامة قبول لتفسيرها بأنني قد أكون ملبوسة أو مربوط لي، وتمتلئ بزهو من توصلها لتشخيص حالة استعصت على حملة الشهادات والألقاب.

الكل هنا في حالة تجريب وتقص واقتفاء للأثر، للوصول إلى هدف واحد، ألا وهو تعطيل متعتي الخاصة. جذبي من صمتي الإرادي الذي يظنونه لا إراديا. أي قصور ذهني يعتريهم! ماذا عن كل الكلمات والأشعار المنغمة التي تملأ رأسي؟ أعرف أنها لا تصل إلى مسامعهم، لكنني مع ذلك أؤمن أنه لا شيء يسمى "الصمت"، فالتفكير والتأمل والتدبر والذكريات والآمال والتشاؤم والتفاؤل والكراهية والاشتياق و... و.....! أسمى وأحقر الأحاسيس ليست إلا كلمات غير منطوقة، دوارة في الدماغ.. تنير الوجه أو تأكل القلب، فقط هي بلا صوت يسمعونه. وهذا تحديدًا ما يشعرني الآن بالارتياح لأنني أخيرًا توصلت إلى تحقيق المعادلة الصعبة: قول كل شيء مع حجب الصخب المصاحب. تماما مثلما كنت أشعر بالزهو حين نخفض مؤشر الصوت بالتليفزيون، ومازال المشاهد يفهم ما يدور بأحداث الفيلم الأجنبي، لأنني كنت قد قمت بتحويل اللغة المنطوقة الزاعقة إلى لغة مكتوبة صماء تم وضعها أسفل الشاشة، فيبدو الممثلون مثل بلهاء يجيئون ويذهبون ويصرخون بلا صوت، ولا تتعلق عيون المشاهدين سوى بكلماتي الصامتة التي تشرح كل ما يجري. وبعد مشهد النهاية، حيث لم يعد هناك مايحكى، أظهر أنا، أو بمعنى أدق يظهر اسمي:

تمت الترجمة باستوديوهات مصر العربية
ترجمة "رباب رفعت"

رباب بنت رفعت أم فيولا بنت آريا على حد قول انشراح، حين كانت تلف حولي بالمبخرة لتحميني من عين الحسود واللي شافني وماصلاش على النبي: "رقيتك واسترقيتك يا فيولا يا بنت آآريّة من كل عين رضيّة!"

تصوري يا شادية أنك تشبهين انشراح "الأوديا" مساعدة سميحة السودانية. والممرضة هناء تشبهك وتشبهها. والممرضة زينة وابتسام وكوثر... كلكن انشراح الأوديا!

حقا من يخاف من العفريت يطلع له. أنا الوحيدة التي كانت تخشى العفريت في طفولتي. انشراح الأوديا. الفتاة المسترجلة التي كانت تساعد سميحة السودانية في التبخير وتسخين آلات الإيقاع وترتيب الكراسي للحاضرات، ورش ماء الورد على الممسوسة لتطهيرها وإخراجها من العالم الدنيوي المدنس. إنها مثلك يا شادية حين تعاونين فريق الدكتور شامل، وترتبين المكان قبل جلسة العلاج الجماعي. لكن لماذا أنا دون غيري التي كنت أخشاكي؟ ف آريا كان لديها هوس بالوصول إلى بيت سميحة قبل انعقاد الحضرة وقت قراءة الرقية والتبخير، حيث كانت تنفرد بالممسوسات أو المقهورات والتنحي بهنَّ جانبًا لتملأ بأقوالهنَّ كراستها، والتي تفرغها لاحقًا على هيئة مادة إذاعية لبرنامجها الأسبوعي "اسألوا آريا"، أو كمادة صحفية لمقالها نصف الشهري بالإيجيبشيان جازيت والمعنون بـ "السبع دقات" أما تغريد أختي فقد كانت تلمع عيناها بشغفٍ طفولي وتتنقل في المكان بحميمية وألفة ثم تنخرط في الطقس الراقص، وكأنها في رحلة مدرسية مُبهجة إلى صالة ديسكو!

عـشـمـان يـا طـبـيـب.. أشـفـى واطـيـب
طـبـيـب لإجـــراح.. هـمـلـنـي وراح
زمـــان الـشـــوم.. شـيـلـنـي هـمـوم
غـــرور يـــا زمـــان.. لم لـــك أمـــان

* * *

شيء استثنائي يحدث لي اليوم، ولو كنت مكان فريق العمل النفسي هذا، لسجلت تلك الملاحظة في الملف الشخصي الخاص بي: هناك اقتران شرطي بين الأقراص المهدئة وصخب المواويل في رأس الحالة. لوحظ أنه بعدما تخلصت الحالة من العقاقير سرا، بدأ إيقاع المواويل يقل تدريجيًا لتحل محله نغمات أخرى ذات جرس طفولي ممزوجة بمواء قطط، ودقات بأصابع منمنمة على البيانو الخشبي اللبني الصغير، الذي يحمله مروان، ثم خبطات رقيقة بعصيّ بلاستيكية على أصابع إكسيليفون معدني، لكل إصبع لون وحجم ونغمة تبهج أكثر من سابقتها.

هل يتهيأ دماغي لا شعوريًا لاستقبالك يا مروان، على اعتبار أنك المخلّص الأعظم من وجهة نظرهم؟ أظن ذلك، وإلا ما هذه الأصداء الطفولية لفريقين من الصغار الذين يصيحون "شد الحبل..شد الحبل.. برطوس.. برطوس الجمييييع..كهربا.. شد الكبس. ثم صوت خطوات تتقافز بإيقاع منتظم، وكأنها رقصة جماعية مصحوبة بأغنية بريللا بريللا بريليلا. عايزين ميين؟ عاايزين رباااب. تيجيبولها إيييه؟ نيجيبلها عرييييس. اسمه إيييه؟ اسمه مروااااان!!

فيولا تموء بقوة: "ما وا وا" وكأنها تناديك "مرواان"، فتهرع نحو شقة خالك الدكتور شامل وتصب لها لبنا في صحن أنيق له حافة ذهبية. وما تكاد تؤنبني لأنني سبقتك بالصحن الصاج الذي خصصته للقطة فيولا، حتى تصيح زوجة خالك من الدور الذي يعلونا: ولد يا مروان !!!!انت خدت الطبق الصيني تأأكل فيه القطة؟؟!!

تخيل أنني أدركت الآن فقط لمَ كنت أخشى انشراح مساعدة سميحة السودانية؟ لأنني شاهدتها ذات مرة تغمس يديها في دماء قطة ذبيحة وتلطخ بها جسد امرأة ممسوسة!

"إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس فاقتربوا منه.. فإنه يلقى الحكمة" ربما يكونوا قد علمونا هذه الحكمة في درس للقراءة ليسكتونا أو ليخرسونا عن قول الحق، إلا أنني الآن ألقى الحكمة بحق. فبالصمت العميق توصلت لمعرفة السر وراء عقدة دفينة. أنا التي تزهو بنفسها الآن مثل "ياورة بك المعجباني" أقل ما يجب عليهم الآن هو أن يخلعوا عليّ بالطو أبيض، ويلبسوني سماعة مثل "حكيم باشا" كبير الأسياد، القادر على شفاء الأمراض كلها. بغنوة طفولية تمشيت بسلاسة في دهاليز النفس. أنا "أم طربو" مثل القديس "أبو طربو الذي كانت آريا تحكي عنه، وتقول إنه اشتهر في العصور الغابرة في مصر حين كان يُرتل مزامير داوود، وأجزاء من الإنجيل مُستعينًا بالموسيقى بجوار المرضى لشفائهم من الصرع، حتى صارت تراتيله المنغمة صلاة وعلاجًا مقدسًا. لذلك كانت تعتبره آريا نموذجًا يحتذى، حين يشتد على أحد البلاء فتنصحه ببساطة بالغناء!

رايـــح اجـيـب الـديـب مـن ديـلـه
وأقـلـق نـومـه ف عـز الـلـيـل
وان مـاقـدرتـش أجـيـبـه حـاسـيـبـه
وأرجـــع أقـــول مـالـقـيـتـلـوش ديـل

الطفلة التي يُغني لها فؤاد المهندس هذه الأغنية تضحك كثيرًا في نهايتها، بينما تنهمر دموعي ويُخفي مروان عينيه المغرورقتين، ونحن نجلس أمام التلفاز في صالة بيتنا لنشاهد المسرحية التي تُعاد مرارًا في فترات الظهيرة أيام الجمعة. طفلة المسرحية في مثل عمرنا وتمرح مع والدها الذي هو في الأصل ليس والدها بل شبيه له. هي لا تعرف ذلك، لكنني ومروان نعرف هذا السر.. إنها بلا أب.. مثلنا لأن والدها قد م...م..مااات! هي إذن موسومة بالعاهة نفسها التي ابتلينا بها. عاهة مستديمة تتسلل إلى آذاننا برغم النبرة الهامسة التي تُقال بها: "أصل باباها ميت" "أصله أبوه مات"! مروان ليس أخي. هو فقط قريب الجيران. ابن اخت الدكتور شامل التي تزوجت وسافرت إلى بلد بعيد، وتركت مروان وأخاه في المدرسة الداخلية، ليقضي نصف الإجازة الصيفية مع والدته، ونصفها الثاني وبعض أيام الجمع على بسطة شقتنا، لنلهو معًا مع القطط فيولا ومشمشة وحسونة ودقدق، ونقوم بدور الأم والأب لأطفال العمارة الأصغر سنا، ونجبرهم على أن ينادونا بابا مروان وماما رباب وإلا حرمناهم من الدق على أصابع البيانو الخشبي الصغير أو الدندنة على الإكسيليفون الملون، على الرغم من أننا كنا في السادسة من عمرنا وهم في الثالثة أو الرابعة تقريبًا.

تلك الأركان التي كنا ننزوي بها لم تكن تشمل عمرو شقيق مروان، ولا تغريد أختي الكبرى، حيث كانا ضمن المجموعات الأخرى الضاجة بالحركة والصوت، لأصير أنا ومروان على حد اعتقادنا آنذاك أبناء لأب واحد هو الأب " الذي مات "!

ياعم ياللي بلا خال تعال أما اعملك خالي
وأحط قلبي الملان على قلبك الخالي
أنا جبت زمار يزمر لي على حالي
زمر وقاللي: قليل البخت من يومك
خدوا غزالك وخلوا موطنك خالي

ما الذي عاد بك أيتها المواويل الكئيبة؟ كنت قد بدأت أنتعش من أغنيات السلم ومواءات وشقاوة القطط: فيولا ودقدق وحسونة التي حظرت عليّ آريا إدخالها إلى الشقة.

لقد قاربت على موعد نومي. أريد زارا مرحا لأنام على أحلام سعيدة. ماذا لو تخيلت كوثر الممرضة سميحة السودانية؟ إنها سمراء مثلها. فسميحة ليست سودانية ولا شيء. سأسميها كوثر السودانية. وشادية جعلتها بالفعل انشراح الأوديا. أما الفكرة الأعظم هي أن يكون الدكتور شامل راقص المنجور. هكذا سأضحك من قلبي وأنام قريرة العين، لو تخيلته يرتدي حزاما مدلى منه القواقع وأظلاف الماشية، ويرقص ببطنه الهائل على نغمات الدف والربابة، وصوت سميحة الرنان حين يبدأ قويا ثم ينعس شيئا فشيئا، وهو يدخل في سلم موسيقي خماسي يُصاحبني إلى

بلادٍ جنوبية بعيدة، ويؤرجحني بخفّة مثل هدهدة الأم في أغنيات قبل النومٍ..

يـا أودة يـا مـــادوم.. يـا حـلـوة يـا جميلة
دة حـمـامـك هـــزاز.. يـا مـا إنـتـي جميلة
دي زي الـقـمـر.. الـعـودة يـا مـــادوم
يـا غـــزال.. يـا غـــزال.. يـا عاشقة محمد
دة والـلـي يـصـلـي.. يصلي عليييييه

4

في كل سكن آوينا إليه كان هناك جار يصرخ، وعلى اختلاف تراوح تلك الأصوات البشرية بين غلظة وشدة وحدة وليونة، كان تفسير العامة من الجيران واحد: الجنون!

تفسير يريح الأذهان، ويعتق من مسئولية تفهم الأسباب، تماما مثلما يتفاعل السواد الأعظم من الناس مع طبقات الغناء الأوبرالي، فلا فارق لديهم بين الباص الغليظ والباريتون المتوسط والتينور الحاد. مجرد صياح بلا معنى يتحدون تجاهه على ردة فعلهم إما بالسخرية أو العزوف.

الحناجر البشرية بالمصحة تصدر تنويعات صوتية تتصاعد ليلاً، وتتقلب من طبقة لأخرى وفقا للباعث عليها: أحزان غائرة في النفس، ندبات على قلوب أعياها الفقد أو التخلّي، تهاويم مُخيفة ترسمها خيالات مريضة.. أو وفقًا لتصنيفات القائمين على الرعاية هاهنا: ذهان.. هستيريا.. بارانويا...

الصرخة التي شرخت سكوت الثالثة بعد منتصف الليل، وأيقظتني على شهقة عالية كانت من طبقة السوبرانو الحادة، لذا حين امتزجت بشهقتي حسبتها صادرة عني!

أودّ الآن لو أهرع مثل طبيب نوبتجية اللّيل، والممرضات نحو نزيلة الغرفة المجاورة، لكي أشكرها على صرختها التي أنقذتني من سخافة حلمي المتكرر على مدار سنوات عشرين أمضيتها مثل حكم مؤبد في العمل مع آريا وتغريد، في مكانٍ يلائم انسياب أحبالهما الصوتية في موجات قصيرة ومتوسطة تبث منغمة إلى نصف سكان الكرة الأرضية. أما الحلم فيكون دائما ظلامًا دامسًا يعم بدهاليز الإذاعة الحلزونية، وأنا أجري لاهثة بحثا عن الاستديو قبل إرسال الهواء بثوان، إلا أنني كالعادة لا أجده!

"تخيلوا؟ لسة بتحلم حلم الاستوديو!! " لطالما سخر مني الزملاء على استمرار هذا الكابوس الشائع معي، بعد كل تلك الفترة من العمل. فهذا الحلم لا يباغت المذيع بعد فترة التدريب سوى مرة أو مرتين على الأكثر.

Whoa-oa-oa! I feel good, I knew that I would
Now I feel good, I knew that I would,now
So good, so good, I got you

لا تدل كلمات أغنية "جيمس براون" هذه على ما أشعر به بالطبع. إنه فقط ما أتمناه. ليتني أستطيع ان أردد خلفه:

إنني أشعر بالسعادة وكنت أثق أنني سأشعر بها
أشـــعـر بـــســعـادة غـــامـــرة لأنـــك معي

أتذكر يا مروان حين كانت تطرق مسامعنا تلك الأغنية، عبر باب شقتنا المفتوح من بيك أب " آريا " الذي كانت تتناثر حوله اسطوانات الجاز

والبوب والسامبا؟ كنّا نرسم بأصابعنا علامات النصر ونمررها بالجنب من أمام أعيننا، ونهز رأسينا مثل رقصة "الجيرك" التي كنا نشاهدها في الأفلام السبعينية، وحين كنا نستشعر أن أحدًا من الأطفال قد لمحنا، تزحف سخونة ممزوجة بحمرة خجل على وجنتينا، ونعاود فرجتنا الصامتة على القطة مشمشة التي وضعت ثلاثة توائم كنا نرغب بشدة أن نحملهم ونهدهدهم، لكن جاءنا تحذير من الكبار بألا نقربهم حتى لا تؤذينا الأم. يبدو أنني أمر بمعايشة صوفية تفضي بي إلى إدراك فوق حسي من كثرة الصمت والسهر. للوهلة الأولى منذ قدومي إلى هذا المكان تتجلى لي نغمات محببة خالية من الوجد، كما ينكشف لي أن نغمات " آريا" في الطفولة لم تقتصر على مواويل السيرة وحلقات الذكر وأدوار الأسياد.

لابد أنك تعلم يا مروان أن "جيمس براون" الذي كان يُغني هذه الأغنية قد وافته المنية، وكذلك "مايكل جاكسون"، وأنني لم أبكهما لشخصيهما بل لإصابة مراحل حبيبة من تاريخي الشخصي بالسكتة القلبية. كانت "آريا" تقول لي أنا و"تغريد" إن ذوى البشرة السمراء اكتسبوا هذا اللون لأن الله قد خلقهم من الشوكولاتة فأثارتني الفكرة وأحببتهم كثيرا. وحين تبين لي أن ادعاء "آريا" عار من الصحة غمرني حزن شديد، كان يتوافق وأغنيات "البلووز التي تستدعى المزاج الحزين والعواطف الجياشة، هذا لأن العبيد الزنوج قد عبروا بها عن آلامهم وأملهم في الحرية. حرية أن أنعتق من تنفيذ فترة إذاعية على الهواء لساعتين إلا ربع على الموجة القصيرة الموجهة لمن كنت أظنهم قد خلقوا من الشكولاتة في وسط وجنوب أفريقيا.

تبدأ آلام السخرة منذ لحظة دخولي إلى الاستوديو قبل نهاية إرسال البرنامج الأوزبكي بدقيقتين. أومئ بالتحية لزميلين من بلاد في أقصى شمال شرق الكرة الأرضية لهما شعور، ووجوه شرق آسيوية مختلطة بملامح سوفييتية، ويلصقان بوسترًا سياحيًا ضخمًا على حائط الاستوديو ليثبتا أن بلادهم ليس لها موقع على خريطة تنفيذ استوديوهات الهواء فحسب، بل على الخريطة السياحية للعالم.

تشمل الفترة تلاوة من آيات الذكر الحكيم يعقبه تفسير للآيات. ثم موسيقى أفريقية خفيفة. بعدها يأتي برنامج للمسابقات لا يرجى من إذاعته استقبال حلول، لأننا نقوم بحل المسابقة في آخر الحلقة. "من أحكام السنة النبوية" برنامج أسبوعي تعقبه الفقرة اليومية الأكثر إيلامًا.. نشرة الأخبار. غليان القارة السوداء بانقلابات وحروب أهلية، ونزاعات على حدود وتحطم طائرات للركاب. وبعد النشرة والتحليل السياسي نستمع معًا إلى أغنيات أفريقية راقصة! ديني سياسي ترفيهي. توزيع محسوب يحمل في ظاهره العدل وفي باطنه عذابي. أشعر أن رأسي صحن من الإسباجتي المتشابكة مع الطبول البدائية التي تحملني إلى تيه وسط غابات السافانا الحارة. كنت أتمنى أحيانا لو تُفاجئني سميحة السودانية بدور"سلطان بني ماما" عله ينتشلي من بين الأحراش.

ها هو خاطر جديد يحرك سرًا من أسرار القلب. فتح جديد من فتوحات الصمت. لسميحة مآثر لم أدركها في حينها. أيقظ السكوت القلب فأدرك ما لم يحط به اللب!

يـــادي الـــغـــزال..الـــغـــزال يـــا مـــامـــا
يـــا خـــفـــة ودلـــع..يـــا غـــزال يـــا مـــامـــا
يـــالـــلا الـــســـمـــاح..الـــغـــزال يـــا مـــامـــا
وآدي الـشـر راح..آهـــــو راح يـــا مـــامـــا

أيام أربعة بعد قدوم الدكتور شامل ليست كافية يا مروان لإطلاق حكم نهائي عليّ مثل هذا. حكم أشبه بإجماع هيئة محلفين على إرسالي مدى الحياة إلى السجن داخل وصمة نفسية، ربما يترفق بي بعض الناس ويعتبرونها مجرد "أزمة" أو "حالة" وقد يتوغل في أبعادها البعض الآخر فيذهبون إلى الحد الأقصى بأن مريض الفصام حين تشتد عليه الوساوس، يصير مثل قنبلة موقوتة، وقد يشهر سكينه في وجهك، إن هيأت له أصواته الداخلية أنك تتآمر عليه أو تكن له ضغينة، فيتجنبونك أو يطاردونك مثل فأر أجرب. ألم تخبرني ذات زيارة سنوية بأن القطع بتشخيص أية حالة يتطلب ستة أسابيع من متابعة تكرار الأعراض داخل مصحة؟ وأليست الموسيقى فنا مؤلفا من الأصوات والسكوت عبر فترة زمنية؟ إذن سكوتي جزء من سوناتا للفيولا والأوركسترا، للوتر فيها الحق أن يستريح قليلاً.

كان خبرًا غير سار حين صرفني الطبيب منذ أعوام بلا روشتة قائلاً: "معندكيش حاجة.. مجرد حالة نفسية!" كم كنت بحاجة يومها إلى مُسمى مرضي أتناول له الدواء فيزول التوتر من تنميل اللسان وعدم القدرة على الكلام بعد أن اختفى "رياض" ثم عاد. وحينما قام "حسين" بإهداء اسمي إلى الممثلة المبتدئة لتضعه على أفيشات المسرحية التي يخرجها!

"يا لسان قُل خيرًا تغنم واسكت عن شر تسلم"! كوميديا سوداء أن يأسروني أنا التي تعمل بهذه الحكمة، بينما يقف الجميع يشاهدون في تلذذ تلك المرأة منطلقة اللسان التي تضطرم نفسها بظلم قديم وقع عليها حين كانت تعمل بمبنى ماسبيرو، فقررت إطلاق بخار صدرها على هيئة سباب ولعنات ومفردات بذيئة تستفها وتنثرها في أيام معلومات من كل أسبوع، على مسمع ومرأى من رجال الأمن والموظفين والمارة، حتى صارت جزءًا مُسلّمًا به من مفردات الحياة اليومية لماسبيرو!

"رُب كلام قد ندمت عليه.. و لم أندم على صمت قط" هكذا أؤمن أن خرسي أفضل من أن أتحدث بصوتٍ طفولي وحروف عرجاء مثلما فعلت "راوية" مهندسة الصوت بعد صدمتها في حبيبها، الذي كانت تنزوي بآريا لتحكى لها عنه قبل وبعد الشيفتات. ثم أصاب حنجرتها هذا العطب حين انكشف أمر علاقتها بهذا الجار القديم الذي سافر وهجرها، فالتف الكلُ حولها مابين مستهجن ومتعاطف بما فيهم زوجها بطل كمال الأجسام! كنتُ أشاهد تلك الأحداث في صباحاتٍ متفرقة حيث اليوم الأوحد في الشهر الذي أذهب فيه إلى ماسبيرو صباحًا لأتسلم راتبي.

الموجات النهارية ليس لها أرقام أو ترددات مثل كيلوهرتز وميجاهرتز مثل موجات شيفتات المساء. هي فقط ذبذبات من الطنين المتواصل، إن حاولت الأذن تفكيك مفرداته ستسمع حروفًا وجملاً عن مشكلات عمل روتينية وصيحات فنيي إضاءة يحذرون آخرين يحملون كاميرات بالتمهل، وأصوات نساء ورجال يتوقفن أمام ملصقات لا حصر لها

بجوار المصاعد، ويعلقون على محتوياتها: انتقل إلى رحمة الله عم الزميل فلان...رحلة إلى رأس البر... عمرة رجب... المعرض السنوي للسلع المعمرة...انتخبوا الزميل فلان.. وهبدات عفية على أبواب المصاعد وصياح الموظفين يطالبون العامل بأن يتوقف حيث ينتظرون.. السااابع! ستة! العاااشر!

"العاشر" هو كلمة السّر ومفتاح إغلاق جهاز التلوث السمعي الرهيب هذا. كافيتيريا الدور العاشر.. كم أشتاقك الآن. موسيقى خفيفة تدغدغ الأذن. مكيف بارد يفكفك الأعصاب المنهكة، وفتيات رشيقات يملن نحوك في تأدب سائلات: "تحبي حضرتك تشربي إيه؟" فتجيبهن بنصف تركيز والباقي من حواسك يتوزع بين مشهد النهر الساكن في صمود بين دفتين متنافرتين. حدائق نادي الجزيرة وقباب الأوبرا وقصور الزمالك من ناحية، ثم شارع ساحل الغلال وحي بولاق ووكالة البلح على الضفة الأخرى. هذا الموقع الفريد للنيل عند مبنى ماسبيرو يحتل مكانة أشبه بقناة السويس التي تصل بين آسيا وأفريقيا وأوروبا، أو مثل جالاتا بريدج الذي يفوت في منتصف البوسفور، فيقسم تركيا إلى نصفها الآسيوي ونصفها الأوروبي.

المدهش أن تصلني مكالمتان منك يا مروان يفصل بينهما ثلاثة أعوام وأنا جالسة على المنضدة نفسها بالدور العاشر وأتساءل هل سيصمد هذا المبنى كمعلم من معالم القاهرة أم ستطوله حُمَّى المزادات، ويتساوى بأي فندق يمتلكه من يدفع أكثر! وهل يمكن أن يفلت المبنى وأظل أتردد على

كافيتيريا العاشر، وأركن رأسي على زجاج نافذتها، وأمد بصري فأجد النهر قد غاب، وأن الحي الذي أسكنه وأزهو داخليا بكونه "شبه جزيرة" سيصير مجرد حي الزمالك؟؟ هل تتابع ما يجري من عبث حول التلاعب بحصة مصر من ماء النهر، أم أنك صرت مواطنًا أمريكيًا لا يعبأ سوى بالأخبار المحلية؟! تريد نشرة أخبار محلية؟ إليك أولاً بالعناوين الرئيسية:

الصمت الذي يعتريني الآن ليس صمت الصمت، بل صمتي القديم وصمتك الأقدم.

نقلت لك سي دي عليه أغنيات "سعاد ماسي" التي عرفتك على صوتها في عيد الموسيقى الذي احتفلنا به معا منذ أعوام في محكى القلعة.

الحياة يمكن أن تدب في شيء خلناه قد ذهب إلى الأبد. فقط اضغط زر الـrewind لتسمع وتشاهد فرقة "المصريين" بكامل تألقها وبنفس أغنياتنا في سهرات حية بوكالة الغوري وساقية الصاوي وبيت السحيمي. أيضًا خوليو إيجليسياس وأنريكو ماسياس استمرا في تحطيم قلوب نفس النسوة اللاّتي ذابت قلوبهن من قبل على أيديهما منذ أكثر من ثلاثين عامًا.. وهما يشدوان بنفس كفاءتهما الشهر الماضي تحت أضواء ليل القاهرة.

أما عن "زياد رحباني" فقد حمل أمتعته وهبط على جمهور محبيه من مصر، ليشدو بنفس السؤال الذي ظل يُراودني قبل أن أعرف لك موقعا على الكرة الارضية "كيفك إنت؟"

ومن الأخبار العالمية: 168 ساعة من العزف دون توقف لألحان شوبان في وارسو، إحياء لذكراه المئوية الثانية.

تماما كما قلت لك، فقط اضغط زر إرجاع الزمن لتبث الروح في الفاني ولتستنطق الساكت!

أمـــانـــة يـــا طـبـيـب اكـشـــف ع الـعـلـيـل واشـــفـيـه
وانـــظـــر بـعـين الحـكـم جـــرح الـنـظـر إيـــش فـيـه
رد الطبيب وقـال: دا اللي الزمان جرحه وخلى دمعه دم
لـــو يـــترك الـهـم أضـــمـــن لـــه الـنـجـاح وأشـــفـيـه!

5

صووووووووول.....
دووووووووووو
دوم تاك...دوم تاك...دوم دوم تاك.....
فاااااااااااااا.....

أقواس تتجول على الأوتار، وأصابع بشرية وعصي خشبية تنقر الطبول، ليصدر العازفون المتأنقون نغمات هاربة، ونقرات مشتتة قبل العرض الموسيقي، ليكون هذا النشاز بمثابة مقدمة هائلة تعتادها آذان الجمهور في الصالة، كبداية منطقية لعمل أوركسترالي بديع. وهذا هو ما كان يحدث في رأسي في الأيام الفائتة.

ارفع عصاك أيها المايسترو بإشارة البدء، ليفتح الستار وتخرس الأصوات المنفلتة والشاردة، ولتتسيد نغماتك أنت فقط أيها البيانو الواثق الحنون الرنان، يامن لست بحاجة إلى تظبيط أو دوزنة..أنت الحاضر اللامع الأنيق اللين القوي.

طـــاطـــاطـــن... طـــاطـــاطـــن... طـــاطـــاطـــن
"تذكر آخـــــر مـــــرة شـــفـــتـــك ســـنـــتـــا
تـــذكـــر كـــان فـــيـــه واحـــــدة مـــضـــايـــقـــة مـــنـــك
هـــــايـــــدي إمـــــــــي.. بـــتـــعـــتـــل هـــمـــي
مـــنـــك إنـــــت.. مـــالا إنـــــت!

أمي وأمك، وخالك وزوجة خالك، والبقال وعم أحمد البواب، وشقيقك عمرو وأنت وأنت.. وأنت....

"كيفك قال عم بيقولوا صار عندك ولاد
أنـا والـلا كنت مفكرتاك بـرات الـبـلاد

من أين لك بالأولاد، وأنت الخائف الخجول المنكمش المضطرب المتردد المتراجع المتخاذل.....؟!

ستووووووووووووووب!!!!

يبدو أن هناك خللاً قد حل بالأوتار فتمددت حتى كادت تتقطع، والتهبت أسطح آلات الإيقاع بسخونة غير محتملة. ماذا بك يا "فيولا"؟ هل يليق بآلة في نعومتك أن تصدر عنها كل هذه الغلظة؟ أنسيت أن جسدك المتثني في دلال يجب أن يظل دائمًا على النحو الذي ضبطه عليه الصانع، فتتزايد قيمتك مهما مرت عليك الأزمنة وتقلبت من حولك الأحوال؟

اهدئي..اهدئي..اهدئي...

نفس عمييييق... زفيييير

"بتذكر آخـــر مـــرة شـــو قلتلي
بـــدك ضـــلـــي بـــدك فـيـكـي تـفـلـي
زعـــلـــت بـوقـتـهـا ومـــا حـلـلـتـهـا
إنـــــه إنـــــت.. هـــايـــدا إنـــت"

حتى هذا الخيار لم تمنحه لي يا مروان، فلم أكن في موقف انتقاء. كل ما أذكره أن أمي قالت إنك لا تصلح سوى للعب مع القطط على السلم. وأن منتهانا معا هو ان نجعل أطفال الجيران يلهون بأصابعهم الدقيقة على البيانو الخشبي الصغير الذي تحمله. صحيح أنه قد تحول إلى جيتار كلاسيكي فيما بعد، لكن آريا قد توقفت معك عند مرحلة النغمات البدائية للأصابع الخشبية.

والنفير الضخم. بوق إعلان الحروب الكبرى، خالك الدكتور شامل. نفخ بكل ما أوتي من سيطرة على بوقه الهائل معلنا ضرورة سفرك إلى "ناشفيل" لاستكمال تعليمك، وربما لفائدة سيغتنمها من خبرتك الطازجة ورشاقة أفكارك، فيسلمك مطمئنا عصى المايسترو وإدارة المصحة. فبرغم الجلبة المهيبة المثارة من حوله فإنه يعلم جيدا بالحرس العقيم الذي يسكن جسده وجسد امرأته، وسيجتث سيرته بعد موته. فلا بنتًا له ولا ولد، وهو يظنك تمتلك الجرأة التي تؤهلك للنفخ في البوق. أما أمك فقد استأنفت صمتها الذي بدأته حين رحلت بعد وفاة والدك وتركتك تحت الرعاية المادية والروحية لخالك الذي تهللت زوجته لفكرة سفرك، وإزاحتك لتأخذ راحتها أخيرا في بيتها على حد قولها.

وفي وادٍ آخر كان رفقاؤنا في الجامعة، الذين كانوا قد توحدوا على تكوين كورس في الخلفية يساندنا كـ"دويتو" فالكل كان يرانا ثنائيا مثاليا. فيولا وبيانو، وأحيانا فيولا وجيتار بمقدوره أن يقدم التانجو والفالس، وكل ما يتطلب اثنين متوافقين لتتم روعته. حقيقة لم أحصل منك على اعتراف كلامي، إلا انك كنت كلما انزويت بجيتارك لتدندن بلحن رومانسي كانت عيناك تتثبتان عليّ وتشعّان ببريق دمعات شجن منحبسة، حتى أنني اختزلت التعبير عن الحب فيما بعد، في أي لحن مرفق بنظرة عميقة أو كلمات منثورة ومرسلة في الهواء. ومع ذلك ظلت كل الألحان التي جاءت بعدك ناقصة، مثل حذاء سندريللا الذي لم يتطابق ومقاس أي من فتيات القرية. أتعرف أنني اخترعت داء نفسيًا أسميته The Cinderella Shoe Syndrome؟ "داء حذاء سندريللا"! سوف أُطلعك على تفاصيله وأعراضه لكي تمدني بطرق علاجه حين تحضر، علك تحصل به على براءة اختراع أو تنشره في دورية عالمية.

أما أنت فقد وقفت أيامًا وأسابيع على باب السفارة الأمريكية كالمنوم مغناطيسيا في انتظار تأشيرة هروبك إلى الجنة الموعودة، حيث لا زوجة أب افتراضية كزوجة خالك، ولا طريق تسلكه يوميا إلى الجامعة فتمر فيه على مدرستك الداخلية التي كان يفقد أثرك بين أروقتها وأسقفها العالية معظم شهور العام، وتمضي فيها ليالى خالية من حضن أم تتوق للتدفء بداخله ولا تجده، لأنها هناك في البلد البعيد مع زوجها. والمفارقة أنه حين أتت اللحظة التي اشتهيتها على مدار سنين عمرك وعادت والدتك نهائيا بعد وفاة الرجل الغريب الذي انتزعها منك، كنت أنت مثل المايسترو

الذي يبدأ إبداعه بإعطاء ظهره للجمهور، فاستدرت فجأة وكأن خالك قد همس لك بصوت خفيض، وأنت بين اليقظة والنوم: "مرواااااان! ستنفذ الآن كل ما سأقوله لك بدقة. قم وارتد معطفك الثقيل واحمل حقائبك وكتبك واستدر. سيحملك السحاب إلى بلاد العجائب. ستتعلم ما لم يتعلمه دارس لعلوم الروح من قبل ومن بعد. ستشهد هناك مالا أذن سمعت ولا عين رأت ولا خطر على قلب بشر. ستعود بين الحين والحين لتصب في وعائي كل ما امتلأ به رأسك. الوداع.. الوداع.. الوداااااع يا مروان!

وحين تلاشيت مثل نقطة في الهواء، بعد أن احتكت عجلات الطائرة بعنف في الأسفلت، وأطلقت المحركات والنفاثات أزيزها الهادر، تساءلت في نفسي لم لا نستطيع أن نغلق آذاننا بالبساطة نفسها التي نغلق بها أعيننا. كما أعياني السؤال نفسه.. هل كان تلاصقنا في الكلية في العامين الأخيرين مجرد امتداد طبيعي لرفقة الطفولة، أم كان غراما متبادلا مثلما شبه لي.. وحدي؟

ما يهم هو أن إيقاع القلب ظل مخلصًا لنغمتك المفقودة، حتى أنه قد تثبت مرضيا على دقات رتيبة كادت تفقده الروح لأعوام ثمانية بعد تلاشيك، إلى أن أتى رياض بطبلة المسحَّراتي.

دوم..تـــا..تـــاك تـــاك تـــاك
اصـــــحـــــى يـــــا نـــــايم
دوم..تـــا..تـــاك تـــاك تـــاك
الـــعـــشـــــق قـــــــادم!!!

عيد المصحة ليس كأعياد البيوت. فالأعياد بين جدران المنازل مرادفة للصخب والسيناريوهات المكررة. العيد الصغير كعك، ونهايات مسلسلات رمضان، ومسرحيات كوميدية هابطة على التليفزيون. العيد الكبير أطباق ضخمة على سفرة عمتي هدى تغطيها قطع اللحم المسلوقة والمشوية والمحمرة وتتوسطها الفتة. الكريسماس شجرة مدببة بكرات ملونة تربك المدخل، ولكنات ولهجات بعدد نصف بلاد الكرة الأرضية من صديقات آريا.

أزيز الحذاء الجديد وضغطه على قدمي الصغيرة، هو آخر ما رسخ في ذاكرتي عن زياراتنا الكنسية المتكررة بأعياد رأس السنة والكريسماس، فضلا بالطبع عن جدال آريا المستمر مع القس. كان الجميع يؤمنون على أقوال القس التي نقلها عن الأم تيريزا في نبرات بطيئة هادئة: "نحتاج أن نبحث عن الرب ولا يمكن أن نجده في الضوضاء والصخب. الرب رفيق السكون. انظروا كيف تنمو الطبيعة. الأزهار والحشائش والأشجار.. في سكون! انظروا كيف تتحرك النجوم والشمس والقمر.. في سكون! نحتاج إلى السكون لكي نتمكن من أن نلمس الأرواح!"

جرحت تحركات وقلقلة آريا بعضا من سكون القاعة، واتخذت من الوعظ الذي ملأني بالروح والراحة حجة للاصطدام بالقس، قبل انصراف الجميع. فسبيل آريا إلى الله كان نقيض ما قاله الأب: الأدعية التي تعقب الصلوات. الترانيم الكنائسية. المانترا الهندوسية. ابتهالات النقشبندي. سوناتات حالمة للفيولينة والأوركسترا. أناشيد البنائين وغناوي الفلاحات

في الحقول. حتى الطبيعة التي تغزل الواعظ في جمال سكونها، ترى آريا أن سرها يكمن في أصواتها: هديل الحمام. دعاء الكروان. زقزقة العصفور. تنفس الزهور. حفيف وريقات الشجر. هفهفة النسيم. غدير الماء... وحين يعلن الله غضبه علينا يكون اضطراب الأمواج.. فوران البراكين وقعقعة الزلازل! أما أعذب الأصوات من وجهة نظر آريا فهي ذبذبات أحبال الإنسان الصوتية.. المادة الخام للكلام!!

أزاحت آريا عن صدرها هم التردد على حضور الوعظ بافتعال الاختلاف على مسألة ثانوية، بينما ما كان يكمن في قلب قلبها هو ذلك الضيق بكل من كان ينظر إلى شق صدرها الناهد من فتحة فستانها اللاصق، استنكارا لتأجج الأنوثة المفضوحة والمتناقضة مع ذلك الصليب الفضي البراق الذي يتدلى دوما في وداعة من سلسلة حول رقبتها!! وكشأن كل بنات أمريكا اللاتينية ترسم بإصبعها ورأسها دوائر متعاكسة أثناء غضباتها الصغيرة المتكررة، مضاعفة أعداد الدوائر المرسومة في الهواء ومشيرة إلى قلبها ثم حول كل جسدها قائلة: "ربنا هنا مش هنا"، ملقية بالوشاح الذي أعارته لها المرأة التي كانت تجاورها أثناء الوعظ، وهي تنظر إلى ما انكشف من صدرها باستنكار..الأمر الذي كان يطلق سراح عفاريت آريا.

في الحادية عشرة من عمري كنت لا أزال، لكن وعظة الأم تيريزا عن السكون والسكينة تحولت إلى تعويذة سرية وآية تصونني حين يشتد حولي صخب العالم. لهذا يروق لي عيد المصحة اليوم. تبدو الحديقة فارغة من نصف روادها، وهدأت الخطوات المضطربة التي تتجول في الطرقات.

لقد سحب العيد الصغير معظم النزلاء إلى صخب البيوت لأنعم بسكون السّكون!

نفس عميييييييييييييق

زفيييييييييييييييير

طا طا طا طا طا طا طا طا طا.... طا طا طا طا طا طا طا طا طا طا

من الظلام يبزغ النور ومن السكون يتولد الصخب! قفزة زمنية تحدث في رأسي بصوت إلكتروني مألوف يجردني من السلام الذي كنت على حافة التنعم به.

طا طا طا طا طا..... طا طا طا طا طا

لكزات متتابعة على شاشة الكمبيوتر منذ أعوام أربعة، تكاد ترج الغرفة ثم تظهر كلمات في مربع المسنجر الخاص بتغريد أختي.

ريدا تقول: "في حد عندكو؟"

فيولا تقول: "حايكون عندنا مين يعني؟ النهارده الاتنين. أمك بقالها أربعين سنة بتروح الإذاعة يوم الاتنين، وعمتك نايمة ومهجة مسافرة لأهلها ف الأقصر.

ريدا تقول: "طب افتحي الكاميرا".

كانت "ريدا" تحرص على إحداث كل تلك الجلبة في كل مرة تحدثني فيها على الكمبيوتر، حتى تستطيع أن تظهر على الشاشة بشعرها!!

فيولا تقول: "والباشا جوزك مش هيتضايق إنك بتكلمي ناس زبالة زينا؟"

ريدا تقول: "ما تفقعيش مرارة أمي. خليني أقولك الكلمتين دول ولو الجرس رن عندكو قوليلي علشان أحط الطرحة"

"تغريد رفعت" شقيقتي الكبرى.. "ريدا" سابقا.. نضحت عليها طبيعة البرنامج الذي كانت تقدمه بالبرنامج الأوروبي، وهي تسعى طوال الأسبوع في العثور على أفضل السيديهات التي قد تكلفها مبلغًا محترمًا تخصمه من راتبها بالمشروع الأمريكي الذي تكدح فيه، مقابل أن تملأ الأثير بتعليقاتها الصاخبة وجُملها الساخرة، وتفاعلها المرح مع المكالمات التي تأتيها على الهواء من معجبيها، وفي سبيل أن تملأ مسامعها بصوتها في التتر المسجل للحلقات..

Jazz Jazz

By: RIDA

وحين مات صوتها على الراديو واختفت معالم جسدها تحت الأغطية السوداء لتذهب بعيدًا برفقة زوجها الذي لم يبذل جهدًا ضخمًا في الشطب على تاريخها وحاضرها، لدرجة أن تحدث كل هذه الجلبة قبل أن تظهر على شاشة الكمبيوتر في صالة بيت أمها، لأنها لن تظهر إلاّ من وراء حجاب، يتأكد لي بالفعل أنها قد تحولت إلى قطعة موسيقى الجاز!

ريدا..تغريد.. أخت عمري وبوصلتي الغائبة. كانت لك إيقاعات الزنوج وأنت تتراقصين في الدهليز الثعباني بين الاستدويوهات غير عابئة بكاميرات المراقبة أو ضيف ذي شأن قد يكون منتظرا بالاستراحة. ومثل الجاز تماما دخلت إليك العناصر الأوروبية الفرنسية والانجليزية الشعبية ليتكون لديك الهارموني: التناغم الذي حققته لك المنحة الدراسية بانجلترا، بعد أن لفظك المشروع الأمريكي حين استنفذ أغراضه المريبة. ثم اختلط الهارموني بأغاني الأسى التي تحتوي على العويل والصراخ والاحتجاج.. مراحلك قبل الأخيرة مع زوجك الطبيب الديني قالبًا، الدنئ قلبا فامتزجت البلوز بالأغاني الروحية الدينية.. ثيابك التي تحرصين على أن تغطي كعبيك ولا تسمح بانفلاتة خصلة من شعرك الذي قمت بحلاقته على الزيرو مرتين، بحجة أنه على كل امرأة أن تحلق شعرها ولو مرة في العمر لينمو أكثر كثافة ونعومة. لكنه خذلك في المرة الثانية لإحساس بصيلاته بأنك كنت تتخذين غطاء الرأس كذريعة دينية تدارين بها أسى الفقد الذي طال خصلاتك وحيويتك. وبعد أن منحك زوجك طفلاً تلو الآخر وجردك من ميراث أبيك، وقطع صلة رحمك بأمك الكافرة على حد قوله، وأختك التي يجب ألا تخاطبيها لأنها تعيش في كنف الكافرة، صرخت من أعماقك بأناشيد الـ"جوسبل" تلك الأغنيات الشعبية الممتزجة بنصوص دينية متشربة بعناصر زنجية طاغية، فبسطت الكلمات وحررت الإيقاع لتؤدى مع التصفيق وتمايل الجسم، بما يصل بمعانيها لحالة تشبه النشوة الدينية الواصلة لحد الهوس. هوسك باللحاق بكل ما فاتك.. معاودة مخاطبتي على المسنجر.. محاولاتك لاسترضاء أمك.. دأبك على

تقصي أخبار كل من تركتهم بإرادتك بحجة أنك كنت تصبرين نفسك مع الذين آمنوا، واحتضانك ثانية لمفرداتك الشعبية التي كنت ترتجلينها كحلية تزين أداءك وتبهر مستمعيك لأنك من نسل أم أرجنتينية أو أمريكية كما يشاع. وأخيرًا حين أحدثت جلبتك الالكترونية منذ أعوام أربعة لتذيعي لي خبرًا، فرحت لأنني كنت في أمس الحاجة إليه فقلت لي: "لقيت الواد مروان اللي فلسع منك على "العنكبوتية"! تحبين إطلاق ترجمات عربية مضحكة على مستحدثات عصرية نشأت بالأساس في الغرب، فتسمين الإنترنت "الشبكة العنكبوتية" والكمبيوتر "الحاسوب" والموبايل "النقال" قلت لي هابعتلك Friend Request على الحاسوب للفيس بوك. إعمليلي Accept. هتلاقي الواد مروان ابن الجيران النحنوح على الأكاونت بتاعي. اعمليله Add. إقفشيه بالعنكبوتية وشوفيه اتجوز وللا اتهبب على عينه وللا إيه!! باي باي دلوقت أحسن النيلة مجدي بينادي!"

بيطلع ع بالي إرجع أنا وياك
إنت حلالي إرجع أنا وياك
أنا وانت مالا إنت
مالا إنت.....

6

ليست تعويذة سحرية ولا نوتة موسيقية. مجرد أصوات بشرية غربلتها أذني من أية أنغام. قد تكون مفردات تطرق قاموس رأسي طالبة للترجمة. الغرفة فارغة من أية أقلام أو أوراق. وجهاز الكمبيوتر، آخر عهدي به كان قبل قدومي إلى هنا بقليل. إنها أصواتنا. نعم. صوتي وصوتك يا مروان، حواراتنا الثرية الصمّاء على المسنجر. ما أحلى الكلام بلا صوت!

هذا السكون الذي طرأ على حالتي الدماغية قد ينسحب على شكلي العام فيلحظونه، ويؤدي بي إلى مزيد من الأقراص أو الوخزات أو الصدمات الكهربية. سأعاود سيرتي الأولى وأمنح الحروف نغمات عملاً بالرأي القائل بأن كل الفنون تسعى لأن تكون موسيقى.

في الأفلام السينمائية التي قمت بتحويل حواراتها المنطوقة إلى كلمات مكتوبة، حين كان البطل يستغرق في حالة جنون صامت، كانت الموسيقى المصاحبة له عادة ما تكون إمّا صفيرًا مخيفًا أو تنويعات رفيعة غير مألوفة على أوتار كمان. سألعب الفيولينة. الأخت الصغرى للفيولا، ذات الصوت المائل للسوبرانو، والذي ينسجم وأصوات الصرخات الليلية بهذا المكان. سأحرك القوس في تموجات بطيئة وسريعة مثل دودة تتجول في تلافيف المخ وتتلصص على أفكاره.

Thud Experiment تُلائمها التواءات سريعة، تُوحي بالإثارة لكي تليق بتلك التجربة التي قام بها عشرة من الأصحاء نفسيًا، أعطوا أنفسهم أسماء اضطرابات وجدانية وهمية، وتوزعوا على مصحات في عشر ولايات أمريكية مختلفة، ليثبتوا أنه لا يوجد ما يُسمَّي بالطب النفسي، وما هي إلاّ وصمات ألصقها بشر ببشر مثلهم، لتتكسب منها مافيا من السماسرة عاش الأشخاص العشرة بداخل المصحات وتصرفوا وفقًا لسلوكهم الطبيعي لكن الأطباء صمموا على إعطائهم العقاقير و لم يسمحوا بإطلاق سراحهم إلاّ حينما بدؤوا يدّعون الجنون ثم تناولوا العقاقير وزعموا الاستشفاء.

أزعجتك التجربة بشدة بعدما احتوتها كل المواقع النفسية على اليوتيوب، لأنك مدين لأساتذتك في مركز أبحاث ناشفيل النفسي بتنقيتك من شوائب الزمن، وتصفيتك تمامًا مما علق بروحك طفلا وصبيًا، وعرقل مسيرة نضجك، حين تلاقيت وأستاذك الذي أرسلك إليه خالك بعدما سمع عن حصافته ونبوغه في تحليل النفوس، فصرت الرجل الذي أنت عليه الآن. قائد أوركسترا يضع أمامه مجلدًا يتضمن التدوين الشامل لمقطوعات الحياة، بناء على إلمامك بخصائص كل آلة. وقد تجلت براعتك في الـmorita therapy، الوسيلة التي خضعت للتحليل النفسي بواسطتها فور وصولك إلى ناشفيل ثم صرت خبيرًا بخفاياها.

تكتكات سريعة بأطراف أصابعي على لوحة الحروف بجهاز الكمبيوتر ببيتنا في الزمالك، تحولت إلى كلمات على شاشتك في ناشفيل، أردت بها أن أتباهى بمعارف لها صلة بمجالك، كان قد أكسبها لي مجالي. فبادرتك

بسؤال أبهرك مثلما يندهش من يجلس أمام عرافة، فتخبره بوقائع حقيقية من ماضيه. قلت لك لابد أنك أتقنت التعلم على آلة موسيقية عندك، أليس كذلك؟ فرددت بكلمتي "جيتار و"بيانو" ثم رسمت أيقونات مندهشة وألحقتها بعلامات تعجب تملأ سطرا!!!!!!!!!!

امتلأت زهوا بالعمل الأحب إلى قلبي، وقلت لك إنني ترجمت فيلمًا عن "ناشفيل"، مدينة الروك والبوب وموسيقى الريف الحاوية لأكبر عدد من الاستوديوهات، وورش ومحاضرات الموسيقى..فعندما يقال مدينة الموسيقى تكون هي. وحين تذكر جامعاتها الأربع والعشرين تستحق لقبها كأثينا الجنوب الأمريكي، وعندما تحصى كنائسها السبعمائة يقال لها "فاتيكان البروتستانت" ولو تجمع سكانها من الأكراد لنالت بجدارة لقبها ك " كردستان الصغيرة "!

مع آخر حرف في كلمة "كردستان" لفظت تنهيدة آسيانة، حملت معها حرارة أداء مفتعل لجملة تقاضيت عنها الأموال لتبث على موجات الـABC NEWS! هل يعفيني جهلي آنذاك من شعور جارف بالذنب حين وافقت على أن يلقنني المخرج الأشقر كلمات دوري كأم أمريكية مكلومة فقدت ولدها في حرب العراق/الكويت، وتناشد بإسم كل الأمهات المكلومات الطاغية "صدام" بأن يرحم زينة شباب الـ"مارينز لكي يعودوا إلي ذويهم وحبيباتهم، وأن يكف عن دمويته التي اضطرتهم آسفين إلي الزحف نحو البلد العربي البعيد!!

نبراتي الخاملة التي تنفرني وصلت إلى مسامعهم عبر الموجة القصيرة

فاستحسنوها وأمهروها مبلغا مقابل باطل كنت أظنه في البداية حقًا، كما كان هذا من الأيام القلائل التي زهوت فيها بعبقرية أدائي.

شهيييييييييييق.....زفيييييييييير

هل كان يدري الدكتور شامل أن جامعتك ليست مجرد منارة للعلم، بل بؤرة ساطعة في بلدة الموسيقى والألحان، لغة ترقية الروح وتنقية النفس؟

وحدتي العميقة مع ذاتي تنمو بروحي إلى أيام الطفولة، وتجلب نغمة رقيقة من باب شقة خالك المفتوح على جهاز تسجيل ضخم تدور فوقه بكرات كبيرة، وينساب مع لفاتها صوت فيروز جارة القمر. "بكتب اسمك يا حبيبي "أعطني الناي وغني "شايف البحر شو كبير ثم ذابت الحروف في مرحلة تالية ليمتليء بئر السلم عبر الباب نفسه بموسيقى من شريط كاسيت يدعى "رحبانيات"

هل لم يكن الدكتور شامل نفيرًا من البداية، وأنا التي شوشرت في ذهني تلك النفخات الزاعقة على نهدات فيروز الحانية بينما أنا التي كنت دون أن أدري..جارة القمر؟؟

نحنا والقمر جيران.. بيته خلف تلالنا
يطلع من قبالنا.. يسمع الألحان

تلك النغمات الحريرية الرائقة تصلح كخلفية لحديثك عن الـMorita Therapy التي حكيت لي أنك قد صرت عالمًا ببواطنها، بعدما طبقت عليك وعرجت بك من عالم الظاهر إلى عالم الحقيقة. فقد تركك معلمك

وأستاذك لأسبوع في غرفتك لكي تصفي الوحدة قلبك، وتتجلى أمامك مخاوفك وأوهامك الماضية فترتقي بذاتك شريطة أن تمر بدرجاتها الأربعة.. مرحلة الراحة حيث التخيل والتأملات والتنفس العميق، ثم مرحلة التدوين تليها المرحلة الأصعب: العمل الجسماني المضني، وأخيرًا مواجهة العالم وأنت ترتدي ذاتك الجديدة. كنت أسمعك مثل طفلة على وشك الدخول في نوم عميق حملني عليه صوتك المخدر، وأنت تنتقل بي في المسالك الروحية لتستقر أخيرًا في بيتك المعمور الكائن في زاوية صدرك وكل هذا بفضلها..الـMorita Therapy.

Morita Therapy?!

Moritaaaaa Theraaaaaapy?!!!!!!

Moritaaaaaaaa Therapyyyyyyyyyyy??!!!!!!!!!

أتراك تطبقها عليّ الآن يا مروان؟ هل تعلم أنني محجوزة مثل رهينة في غرفة المصحة هذه؟ هل تآمرت معهم ضدي لتعيد تدوير القهر الذي تعرضت أنت له؟؟

من يدري.. ربما تراقبني بعين سحرية مثبتة على أحد الأسقف، وقد تلصق أذنك على باب الغرفة أو حتى على مدخل رأسي لتتلصص على نوعية الموسيقى التي تلعب بداخلها!!!

عيون..عيون..وحدقات تتسع وتملأ الحائط المقابل لي وتُحملق في مليا. بل هي آذان مفتوحة عن آخرها تتزاحم على التقاط أية اشارات

صوتية صادرة عني. استرح يا مروان..لن تبلغ آذانك السماعة وعيونك البصاصة مرادها فقد اخترق حلقومي شهيق عميق توا ثم تلقف حجرًا ثقيلاً سد منافذ الكلام والتنفس. قلبي يصعد إلى حلقي ويرتطم بالسد الحجري. شهقات صغيرة ومتلاحقة تدخل صدري لا تؤدي إلي زفرات مريحة. لقد حلت ساعة النهاية. اضطرب القلب وانحبست الأنفاس. آآه..آآه..آآه. سأموت سأموت سأموت الآن. آآآآآآآآآآآآه.

شهيـــــــــــــــق زفيـــــــــــــــر
شهيـــــــــــــــق . زفيـــــــــــــــر
شهيـــــــــــــــق . زفيـــــــــــــــر

إنها نوبة الهلع يا فيولا. ستعبرينها سالمة مثلما هاجمتك ورحلت من تلقاء نفسها من قبل، ليلة أن استيقظت فجرًا وأنت في الخامسة من عمرك، ووصلتك تأوهات غريبة بصوت والدك، وكأن شخصا يطعنه بسكين حاد ثم تحولت التأوهات إلى صرخة سقوط من دور عال وهو يقول لأمك: "هتموتيني يا آريا " اختبأت خلف العامود حين انفتح الباب الموصد، وخرجت أمك في تدلل بقميص نومها الحريري تفوح منه رائحة عطر زاعقة ممتزجة بعطر والدك. فتحت عينيك عن آخرهما لتشاهدي جثة أبيك وهي تجرجرها والدماء تقطر منها. لكنها عادت بالتكاسل نفسه إلى الغرفة بعدما تأكدت أن لا أحد في الصالة. ثم سمعت أصوات غنجهما وضحكاتهما المضغومة، فزفرت تنهيدة عاد بعدها لسانك إلى التحرك بداخل حلقك، إلاّ أنك ظللت لسنوات تترقبين اللحظة التي تخرج فيها آريا من غرفة نومها بالسكين الغارقة في دمائه!!!

تحيـا جمهورية مصـر العربية
تحيـا جمهورية مصـر العربية

أرددها في قوة حماسية لأنها تمثل لي جملة الختام بالعرض الصباحي العبثي المسمى بإذاعة المدرسة، إلاّ أنه ذات يوم ثلاثاء بعيد كنت أقف خلف الميكروفون، وفي يدي ورقة بها أقوال إنجليزية مأثورة. وما إن بدأت في الجملة الأولى حتى طال أذني همس من مدرسة الفصل إلى وكيلة المدرسة الواقفتين خلفي: "خلّوها تروّح مع عمتها دلوقت علشان باباها مات"!

كانت هذه هي نوبة الهلع الثانية، فقد اخترق الهواء الثقيل المحمل بالحجارة صدري، وتلبكت الكلمات. حلت الـS مكان الـm وحلت الـh مكان الـf!!! كيف قتلته يا آريا نهارًا بينما القتل لا يجوز إلاّ في الظلام؟!

قال حكيم إن الصمت العميق اعتراف كامل. سيشجعني عدم وجودك وسكون لساني على الاعتراف لك بعدة أسرار يا مروان، أولها أنني لم أكن كالأطفال الملفوفين بثوب البراءة الخالصة، فقد اختلطت الحروف وتلبكت الكلمات فعلاً لحظة سماع نبأ وفاة والدي، فأعفيت فورًا من استكمال قراءة الأقوال المأثورة بإذاعة المدرسة التي رشحت لها كأمر مسلّم به، على اعتبار أنني وارثة لحب الإلقاء بالفطرة. فقد كان صيت آريا لا يخفى على أي متحدث بالإنجليزية، وما إن كانت تحدث لي أو ل ريدا أختي مشكلة في المدرسة، كانت تحل فور أن ترفع آريا سماعة الهاتف وتقول "هاللو فتفتت نبراتها الناعمة المبحوحة أعصاب أي مدرس!

الموت في حد ذاته هو ما أرعبني حينئذ بصرف النظر عن المتوفى. فقد كان يخيل إلىّ أن أي موت لابد أن يقترن بجثة مفتوحة العينين، وتتقاطر منها نقط الدماء. أما بعد أن عدت إلى البيت ووجدت البلاط لامعًا والأثاث نظيفًا، لأن أبي قد سكتت عضلة قلبه التي كانت تعمل بربع كفاءة في المستشفى بلا دماء، عادت الحروف إلى مواقعها الأصلية في أبجديتي، لكنني استمرأت لعبة التلعثم، خصوصا بعد أن راقت لي ألعاب تدريبات التخاطب في عيادة الطبيب الوسيم الدكتور عادل. عشقت "بازل" الحروف الملونة التي تطور عشقي منها إلى لعبة الـ"سكرابل لتكوين الكلمات ثم إلى الولع بالقواميس وفك شفرات الحروف الأعجمية.

أحببت تدريبات التنفس شهيق زفير –شهيق زفير– شهيق زفير، وحملتني جلسات الاسترخاء على سحابات قطنية تطير بي بخفة مثل بساط الريح، أو تغوص بي مثل عروس البحر عند الكائنات البحرية ذات الألوان الزاهية في قيعان البحار والمحيطات. أما أكثر ما منحني فرصة للعيش مثل ملكة في البيت والمدرسة فهي الإرشادات التي أعطاها الدكتور عادل لأمي بأن تتوقف عن نصحي أو تصحيح الكلمات، أو مساعدتي فيها إذا تعثرت وأن تتحاشى تعبيرات الوجه التي توحي بعدم الصبر أو الحرج إذا ما تلعثمت أمام الناس. أما الجائزة الأروع فقد كانت التسميع في الفصل بالكتابة بدلاً من التسميع الشفوي. إلى أن أقامت عمتي هدى معنا لبضعة أيام بحجة مساعدة أمي على استشفائي، فأطلقت لسانها الذي لا يطيق صبرًا على تعليمات روحانية هادئة، وصارت تقلدني كلما تلعثمت وتمنحني مسميات مثل "أم نص لسان" و"تهتوهة" و"ببب" حتى

اضطررت آسفة إلى الخروج من جنتي كيدا فيها، ولأتخلص من الأسماء التي ألصقتها بي! رصاص كلماتها هو أيضا ما أورثني كفرًا وعنادًا فيها وفي ذاتي لما ظلّت تردد: "دي تبقى معجزة لو نجحت رباب أم نث لثان ف امتحان المذيعات زي تغريد!!" ونَجحْت.

قفز قلبي مكان حنجرتي في أول شيفت لي على الهواء وغرقت في عرقي البارد أثناء ثالث نوبة هلع تنتابني في حياتي. لكن في هذه الأثناء دار في خلدي خاطران: إما أن أدع قلبي يقفز من فمي وأموت رعبا من ميكروفون فتهنأ عمتي هدي بشماتتها في، أو أن آخذ نفسًا عميقًا وأحبسه لثوان ثم أخرجه من فمي في بطء بينما أضع إصبعي على زر الطوارئ ثم أكمل عرض البرامج في سلام وأخرج لساني لعمتي.

أترى يا مروان كم من الذكريات السيئة جلبت لي الآن؟ لن أسامحك إن عرفت أنك موجود في مكانٍ ما هنا وترمي بي إلى تلك الأفكار التي تدق على رأسي، بينما كنت ظننتها قد تبخرت منذ زمن. لكن لم لا تكون مفردات هذه الغرفة الموحشة هي التي قلبت نفسي بين عذابات الماضي لتشابهها، والمربع الموصد بأبواب حديدية تومض بداخله وخارجه الإشارات الحمراء كلما قربت فمي من المايك وأصدرت صوتًا يصل إلى مستمع مجهول؟!

التحرك نحو الحديقة حتمي الآن. أحتاج أن تكون جدراني نسمات وسقفي سماء. أشعة الشمس تغمر الروح المعتمة بفيض من نور باهر، وحوارات العصافير تبدل إيقاع القلب الرتيب إلى زقزقات منغمة، وكأنني في روضة صغيرة ويلهو من حولي الأطفال.

أعتذر يا مروان لسوء ظني بأنك كبلتني بقيود وهمية في سرير هذه الغرفة. فهاأنا أصول وأجول بين الحجرة والحديقة في حرية تامة. أم ترى أن هذا هو التعديل الذي أدخلته على طريقتك العلاجية العجيبة؟!

فيولا مالك تتقهقرين نحو حالتك الأولى كـ"ربابة"؟ شجية نعم، لكن نغمتك الصوتية محدودة. مجرد أوكتاف واحد مكون من كآبات الماضي وضلالات قمعتها بالتعقل، وهاهي تهاجمك ثانية بقوة. العيون والآذان التي تتهمين مروان بزرعها حواليك مثلما هيمنت على رأسك فكرة التخابر وتكتكة أجهزة الإرسال اللاسلكية وفك الشفرات، وأصوات فلاشات الكاميرات الدقيقة التي تحمل بين إصبعين، وتقوم بتصوير وثائق خطيرة، بعد مشاهدتك لفيلم الصعود إلى الهاوية وأنت في الحادية عشرة من عمرك؟ نفس عام جدال آريا مع القس والتلعثم المدرسي ونوبة الهلع الثانية. ألم أقل لك إنك تروين حواديت مختلفة لكن على أوكتاف واحد مثل منشدي السيرة الذين كانوا يحملون الرباب في الفرق الشعبية الجوالة في الموالد التي كانت تأخذكم إليها آريا؟

وأول كلامنا بنّوتة زي الربابة. قاعدة جنب أمها ف تاكسي وعينها ع النيل جوالة. ضل السواق اللحوح يقول سؤالات غريبة مش بتاعة سواقين. يعني إيه رأيكوا ف الريس.. ملاك ولا لعين؟ وانتوا يا ستات البلد مع ولا ضد فلسطين؟ والشعب فرحان بالسلام وللا زعلانين؟ لكنته كت غريبة ع الودن وشكله كان غريب ع العين. الفيلم إياه كان مأثر ف البنوتة وكلامه ف دماغها شغال. قالت لأمها تعالي نروح نبلّغ ونبقى م الأبطال. وتاني يوم سألتها إحنا ليه ماروحناش؟ وتالت يوم رجعت وقالت هنفضل كدة ساكتين؟ السواق دة م الأوباش! وف كل مرة تهشها

آريا كأنها دبانة لازقة.. وعشان كانت لسة عصفورة..طارت. بس فضلت الفكرة ف دماغها لازقة. أمّال إيه؟ دة الهرم.. ودة النيل..دي مصر يا آريا!!!

وتاني كلامنا "إيريك" شاب أفرنجي عيونه لمّاعة وشعره ع الجبين سايح. يرطن بلغة بلده وجنبها تلات أربع لغوات. يقول النكتة حرّاقة تفتح قلوب البشر إن كانوا حريم أو جدعان. يقعد قصاد المايك رهوان. يلف ع لسه وديوهات دادابان. من فرط سحره ينفك له أي لسان. ف كل حي وكل نجع تلاقيله صاحب. قسيس تلاقي إمام تلاقي فرنسي هندي حتى اللاوندي..بيصاحب. كانت تعزه آريا معزة الولد وف إيدها تاخده وتلف الموالد. إكمنه بيفكرها ببلاد بعيدة ومعاه تفك وتجيب ف سيرة الوالد.كتر الكلام عليه وقالوا عميل لد "سي آي إيه" وادّولوا سكة وم الشغل والبيت قطعوا رجليه. حزنت عليه آريا لما اتخفت سيرته. وقالت كادو للصبي الجهلة ظلما افتروا عليه..ده كان لي خير الإبن والصاحب!!!

وتالت كلامنا "تغريد"..أختي نوارة الإذاعة..ترجمانة فوري لهلوبة تلقاها ف كل قاعة. ف إيدها عايزة القمر وجنبه عشر شهادات. فراحت تساعد ف معونة أمريكي بالساعة. قال إيه يخلّوا بنات البدو يعملوا إعقاد وغوايش. أما الرجال من نوا البلح ينتجوا صناعة. وريدا يوماتي تستف بالتلات تقارير. مين ماعيزش يشتغل عشان معادي مين؟ خناقات عوايل وللا نصارى ومسلمين؟ وطيت عليها وقلت بهمس: " تكونيش كدة بتفشي السر؟ " ردت عليّا بعلو الحس: " كل الكلام دة معروف ومنطوّر ف الجرانين!! "

ده الهرم

ودة النيل

دي مصر يا عبلة!!!!

* * *

مروان! هيا أيها العازف الماهر يا من اهتديت إلى العفق بالاصابع لتستخرج من الوتر الواحد عدة نغمات. احملني خارج تلك السيرة إلى ملحمة مختلفة أو أعبر بي إلي الكلمة الأخيرة في ذيل الدودة التي تتلوى في مخي وقل لي Pass لكن ليس بمعناها في قاموسي الخاص، بل بترجمتها العادية في قاموس أكسفورد أو وبستر أو المورد، حيث لا يخرج معناها عن تلك المفردات: يجتاز- يمر- يتجاوز- ينجح. ما يهم هو أن تجعلني أنجح في أن أمر من هنا وأتجاوز هذا الموّال الذي عاودني بعدما كنت قد عبرت بسلام من مرحلة المواويل الدوّارة.

ف باطني جرح من جوا الحشا صدفات
على حب خدته جواهر وانقلب صدفات
بعد ما كان طياب مصري إنقلب ناوي
أما طريق البلاوي تيجي بالأصحاب صدفات

7

شخليلة للعيّل.. يابو العيال ميّل

خدلك سبع زمامير

تتعالى ضحكات الصغار من أعماق قلوبهم، حين نهز أمامهم الشخاليل الملونة لنسليهم أو لنلهيهم عن البكاء. وفي أوقات أخرى ندّعي أننا نجرب الشخليلة والجلاجل لأنها في واقع الأمر تدخل الفرحة إلى قلوبنا نحن الكبار.

جلجلتي وشخليلتي كانت "مهجة". هل تذكرها؟ عيد الموسيقى. محكى القلعة. جيتار "سعاد ماسي فرقة صن شاين وموسيقى الصالصا. الطبول النوبية؟ اصطحبتها معي يوم تلاقينا الأول بعد الغياب يوم عيد الموسيقى، وكأنني أحمل شخليلة لأداعبك بها مثل طفل، إلاّ أنها لم تعطك أو تمنحني البهجة المرجوة حينئذ. قلت لك لو كنا قد تزوجنا لصارت ابنتنا في مثل عمر مهجة، فعاملتها بحميمية الأب وربت على كتفها، وأنت تمد لها يدك بالسلام وكدت تقبلها من وجنتيها، فأخرَست جلاجلها وسحبت نفسها بعيدا لتجول بمفردها بين الفرق الموسيقية، بعد أن همست في أذني أنها لا تحب أن يجور أحد على حرمة جسدها.

لهفتي على حوار من لحم ودم معك جعلني أتغاضى عن فعلتها الشاذة. وألهاك اندهاشك من تجاور الحضارات والأزمنة في هذا المساء الفريد، فأخذت تركز على تثبيت اللحظات في المخيلة بالتقاط أكبر قدر من الصور الفوتوغرافية والفيديوهات القصيرة بهاتفك المحمول. سماء القاهرة الفاطمية وهي تودع شمسها الحمراء وتستقبل النسمات الليلية. شعور شقراء ووجوه سمراء وملامح شرق آسيوية وأوروبية تتوحد على المزاج نفسه. شباب من كل بقاع الدنيا يتحركون في خطوات شبه إيقاعية في أحضان التاريخ الأيوبي بمحكى القلعة. وفي الخلفية موسيقات متنوعة لفرق تسلم الأغنيات لبعضها البعض، وتنقلنا في معراج من النغم من أقصى جنوب الأرض إلى أبعد نقطة في شمالها. وما إن داعبت أصابع "سعاد ماسي" أوتار جيتارها وهي تعتلي منصتها حتى صرخ الشباب في حماس تعجبت له لأنك لم تسمع بتلك المغنية الجزائرية من قبل. قربت فمي من أذنك وقلت لك إن انتشارها محدود بين من يعشقون مزج الموسيقى الشرقية بالروك والفلامنكو. تبادلنا الأدوار وزعقت أنت في أذني: "أنا فرحان قوي. حاسس إننا ف فيلم سينما! " فأشرت لك بأن اصمت الآن لأنها سوف تبدأ في شدو أغنية أهواها:

ديرني ف بالك، ياللى أنا أهواه
أنا قلبي اختارك، قلبي اختارك

مروان! هل تلهيت؟ أنا الآن أداعبك بالشخليلة لألهيك عما سأرويه لك. أريدك أن تنصت دون أن تنفعل. لقد اشتغلت على ذاتي ليلة أمس، وتوصلت إلى أنك حتى لو كنت تعتقلني بهذه الغرفة لترصدني فأنت

بلا شك لا تحمل لي ضغينة. وقررت أن أسمو مثل ملاك في عالم الغيب لدرجة أن أمنحك النقاط على حسن النوايا وأسير معك حتى النهاية.

سأفترض أنك فعلا تطبق عليّ أسلوبك العلاجي الذي يبدأ بالعزلة والغوص في الفكر والتاملات والتخيل. لقد بدأت اللعبة تروق لي وأجمل ما فيها جزئية الخيال هذه، فلقد قطعت شوطًا لا باس به في التفكر والتأمل أدى إلى لمعان نقاط في رأسي كنت أظنها شديدة العتمة. إلاّ أن ما يزعجكم جميعا بالخارج أنني على صمتي لم أزل. أتراه التخيل ما سيفك المربوط ويظهر المخبوء؟

فلنبدأ...

من الأصوات الحبيبة التي تهون سيري الحلزوني في طرقات ماسبيرو صباحًا، صوت كر بكرات التسجيلات في لفات لها أزيز يشتد في السرعة كلما أوشكت البكرة على الأنتهاء، ثم يتدلى منها شريط قصير ويتلقفها مهندس الصوت ويضعها على جهاز آخر لتشتغل في ثقة وفي بطء.

دعنا نعود إلى محكى القلعة ونتخيل "مهجة" بكرة تدور سريعًا. هي فعلاً ترفع صدرها ذات اليمين وذات اليسار، وتدفع بكوعيها إلى الخلف والفرقة النوبية تصدح بأغنيات العُرس.

يـالا لونـا اللـون.. لولا يـا للونا
الحياة لها لون.. لون جمال ليالينا

الأصابع السمراء تقرع بشدة على الدفوف أثناء دوران مهجة في حركاتٍ راقصة مع فتى الفرقة الأول. تتمايل معها جلاجل قرطها

وكردانها وخلخالها. الإيقاع الجنوبي يعلو ويتصاعد ويغطي على كل ما دونه حتى يصبح سماع أية حوارات جانبية مستحيلاً رابعًا. الآن هي فرصتي في كر الاعترافات مثل بكرات التسجيلات الدوارة للخلف.

مروان! لقد شاركت في جريمة قتل وأتعطش لقتلٍ ثان، ولا أشعر بالذنب.

الإيقاع الصاخب تصاحبه أصوات نسائية قوية تصعد على السلم الخماسي إلى سابع سماء.

الليلة الحنة.. يا بنات الحنة.. الليلة الحنة

مروان! يوم محكى القلعة كنت أتمشى ببصري بحثًا عن رياض وسط الأفواج السياحية، وأنا واقفة إلى جوارك. وبعدها بأعوام ثلاثة حين تلاقينا في المكان نفسه كنت مشتتة الذهن أفتش عن حسينٍ، ولم يكن شرودي بسبب تأثري البالغ بكلمات أغنيات "وجيه عزيز كما ادعيت!

الجلبة والضجيج وتزاحم الأجانب حول الطبول النوبية كاد يطمس روعة آهات سعاد ماسي الحانية. إنها فرصة ألماسية لبوح أخير قبل أن يتوجه القائمون على الحفل نحو أعضاء الفرقة النوبية ويسألوهم أن يكفوا عن التشويش على المطربة الضيفة!

نعناع الجنينة مسقي في حيضان
شجر الموز طرح ضلل على عيدان

مروان! الإخلاص لدقة قلبي الأولى نحوك لثماني سنوات لم يكن

اختياراً. فقط لم يصادفني من يصفق بمهارة بجواري ويشدني خارج الإيقاع الرتيب!

النوبيون يرحلون بجلابيبهم الناصعة ودفوفهم الكبيرة. والنوبيات ذوات الأثواب الزاهية والأصوات العفية يتبعنهم في تذمر.

تهتز أوتار سعاد ماسي في نعومة تتسلل إلى الأرواح. أنت وأنا على موجتنا الشاعرية لا نزال، وسط الجموع التي تهلل بعد أن تنتهي "ماسي من وصلتها.

حالي محيرني، ليلي مسهرني
وعلاش يا عمري، اتعدب فيّا
ديرني ف البال.. غير انت.. غير انت
غير انت اللي ساكن قلبي!!!

* * *

لكن لم الرعب والفزع والاحتماء بصخب دفوف وطبول، وتدوير الكلمات على اسطوانة سريعة حتى ليبدو ما أقوله مثل عبث شخصيات كرتونية تتحدث بنبرة واحدة وسرعة رهيبة؟! نحن الآن في لعبة التخيل، أليس كذلك؟ وأنا ربابة شجية في يد راو للسيرة أو فيولا شامخة يحتضنني عازف متأنق أو قيثارة هادئة بأوتار ثلاثة تداعبها أنامل ربة فرعونية.

قيثارة....ربابة.....فيولا

اسحبي نفسا عمييييقا....احبسيه لثوان

زفيييييييييييييير

مروان! سأقوم الآن بدور المعالج وستكون أنت المريض. مارأيك؟ ستتخيلني "آريا" وهي تجلس متربعة على أرض الصالة في شقتنا، بينما تزحزح كل الأثاث بعيدًا وفي مواجهتها تجلس نساء عشر أو أكثر. كلهن إذاعيات ذوات نبرات متميزة إلاّ نشازًا واحدًا ينزو في ضجر..عمتي هدى!

تتخذ المجموعة النسوية متعددة الجنسيات الوضع نفسه الذي تجلس عليه آريا. يرددن وراءها أشياء وفي الخلفية تدور موسيقى هادئة تحمل طابعا آسيويًا، تسمع خصيصًا للتأمل والغوص في عُمق عمق الذات.

مروان! لن أجبرك على وضعية التربع على الأرض. أغمض عينيك واسترخ فوق هذه الأريكة. اترك ذراعيك وساقيك تتخذ أي وضع يشعرك بالارتياح. لا أريد أن يكدرك أي شيء. أي شيء مطلقا.

تخيل الموسيقى الآسيوية تنساب مع موجات بحر خفيفة، ورفيف أجنحة سرب من الطيور البيضاء يحلق مغردًا في خطوط راقصة. ذراعاك ثقيلتان وجفناك أيضا. لا تستطيع أن ترفعهما. لكن ذهنك سيتلقى في وضوح تام كل ما سأقوله لك. عليك ألا تندهش أو تتأذى. كلما تلفظت بشيء يزعجك سترد بينك وبين نفسك: "كل شيء على مايرام. كل شيء على مايرام. كل شيء على مايرام!"

سنكمل يومنا مثل أي فيولا وبيانو يشتركان في عزف كونشيرتو بديع، ولن تعبأ بكل ما تكون قد سمعته أثناء استرخائك على الاريكة، لأنك

ستكون مقتنعا بأن كل ما قلته لك عادي وعلى مايرام.. عادي وعلى مايرام.. عادي وعلى مايرام.

عليك الآن ان تتجاهل كل صوت دون صوتي الناعس. حتى الأمواج والموسيقى الناعمة وتغريد الطيور. انصت فقط إلى همسات "رباب" نغمات الفيولا وهي تعبر عما يجيش بداخلها لتتخفف من ثقله وتنقله إليك. لكن مطلوب منك ألاّ تنزعج أو تكتئب أو تثور عليها.

نفس عمييييييق.....زفيييييير

الآن...

عودة إلى الجلاجل.. الشخليلة.. مهجة.

هل أبدأ الحكاية بـ" كان ياما كان " أم أسردها عليك بطريقة "الهرم المقلوب" مثل نشرات الاخبار؟ بحكم المهنة سأحصي عدد القتلى والجرحى أولاً ثم أشرح تفاصيل الحادث وفي النهاية سأعطيك نبذة تاريخية.

ذات صباح يوم خريفي مشمس، لحظة الذروة المرورية بشارع عباس العقاد، تم سحب أرجل طفل بالملقط خارج الرحم ثم شُد جسده كاملا باستثناء الرأس الذي تم تحطيمه لاحقا بمقص طبي. وهناك احتمال آخر بأن يكون قد أُدخل في الرحم نفسه أنبوب أجوف يشبه المكنسة الكهربائية فشفطت الدماغ حتى انهارت الجمجمة، وأخيرًا تم سحب الطفل ميتا بعد أن أُزهقت روحه البريئة.

وقد بلغ عدد جرحى النفوس والأرواح ثلاثة أو أكثر، خرجن الواحدة تلو الأخرى من تلك العيادة السرية بقلوب كسيرة. البؤس الذي اعتراهن كان واحدًا، لكن تعددت الأسباب. كنت أنا إحدى أولئك الثلاثة. ردد خلفي وانت مسترخ تماما:

كل شيء عادي وعلى ما يرام كل شيء عادي وعلى مايرام.. كل شيء عادى وعلى ما يرام!

* * *

عودة إلى الوراء قليلا. عيادة سرية أخرى أثناء ساعة ذروة مسائية بشارع البطل أحمد عبد العزيز تحمل الطابع نفسه. صالة رحبة نظيفة. طلاء حوائط هادئ تتناثر فوقه لوحات مريحة للعين وإيقاع رتيب لصوت التكييف.

الممرضة الحنون تتلقاك في رفق وتأخذ البيانات في سلاسة. الإسم. السن. آخر مرة جاتلك الدورة امتى؟ دي أول مرة تعملي إجهاض؟ اتفضلي استريحي الدكتور على وصول. لم أكن أنا التي تجيب عن الأسئلة، فلقد كانت موجهة جميعا إلى حلية الألحان وفرحة النغمات.. مهجة!

استرحنا قليلا ثم توجهنا إلى غرفة الدكتور "يوسف ملاك" لنجلس متقابلتين أمام مكتبه. تفاءلت قليلا، فكل ما فيه يشير إلى أنه اسم على مسمى. نبراته الهادئة الواثقة. عيناه الخضراوان. سماحة قسماته وابتسامته المطَمئنة.

كان آخر ما استطعت تمييزه كمفردة مرئية هو صليب خشبي فوق مكتبه، مدقوق عليه جسد نحاسي ليسوع وهو يتألم، فكل ما التقطته حواسي بعد ذلك كان مجرد أصوات. الحلقات المعدنية بستارة سرير الكشف تجر مرة قبل أن تصعد مهجة إلى السرير ومرة بعدها. عويل كلب من الشارع يمتزج في تنافر وآذان العشاء. ثم سحب الستارة مرتين أخرتين وعبارات الدكتور ملاك بعد أن عاد إلى جلسته الواثقة خلف مكتبه: " دي كدة قربت تخلص الشهر الرابع! تيجوا بكرة الساعة اتناشر الصبح أديها حقنة وبعدين تاخديها في أي حتة بعيد عن بيت أهلها. هيجيلها مغص تقيل حبتين.. تحاول تستحمله. بعدها هتنزف جامد شوية، وعلى بالليل هتبقى كويسة. أربعة آلاف جنيه تتدفع مقدمًا قبل العملية "

قلت أشياء أظنها كانت صادرة من شخص غيري لأنني كنت أسمعها ولا أشعر بها مثل: " ألا يمكن أن نبقى هنا بالعيادة بعد العملية حتى تلقى الرعاية في حال حدوث شيء؟ أو "ألا يوجد مستشفي يستقبل مثل حالتها؟" تلقيت إجابتين جاهزتين:

"المستشفى مسئولية وس وج ولازم ياخدوا بطاقتها وبطاقتك وكدة يعني يا مدام!"

"علشان خاطرك بس ممكن أخليها ف العيادة، لكن ف الحالة دي هاخد ستة آلاف جنيه، وهأقول إنها جاتلي في حالة إجهاض لو حصل أي حاجة!".

مر أمامي شريط لكل المشاهد السينمائية للمواقف المشابهة. الفتاة التي تموت في عيادة طبيب يتخلى عنها ويهرب. ويتورط الذي اصطحبها في التهمة ويقف شاردًا وراء القضبان.

لمحت شكلي في مرآة صغيرة ببرواز على المكتب. كنت أضع طلاء شفاه باللون الاحمر على غير عادتي. لابد أن الطبيب قد ظنني قوادة أتيت بإحدى الفتيات اللاتي أسرحهن. بحركة عفوية سريعة مسحت طلاء الشفاه بظهر يدي، وسمعت صوتًا مخنوقًا يصدر مني يقول: " ست آلاف كتير قوي يا دكتور. دي بنت أختي وكان مكتوب كتابها بس محصلش نصيب هب واقفا وقال في لهجة صارمة فكروا واتصلوا بالعيادة في اي وقت بس قرروا بسرعة علشان احنا كدة داخلين على الشهر الخامس!"

مروان! لا تنس. شهييق. زفيير.. كل شيء عادي وعلى مايرام.. كل شيء عادي وعلى مايرام.. كل شيء عادي وعلى مايرام!

* * *

بالنبرات المرتعشة والصوت المختنق نفسه عاودت الإتصال ب لؤي صديق ريدا أختي، وأخبرته بما جرى في عيادة يوسف ملاك التي كان قد أشار بها عليّ، فنصحني بالعيادة الثانية التي تمت فيها الجريمة بنجاح. إلاّ انني لم أقو على الاشتراك في المفاوضات هذه المرة، و لم أعرف لها موقعا إلا حين وصلتني رسالة من مهجة على المحمول تخبرني بالموعد والمكان. نفس الظرف الزماني تقريبا. الثانية عشرة ظهرًا. وضح النهار وفي

شارع يضج بالحياة. ففي هذه الحالة تحديدا يكون على عكس الشائع.. فهاهنا.."النهار ستّار"!

وصلت متأخرة قليلاً وارتكنت إلى النافذة العريضة المطلة على شارع عباس العقاد. تركت أذني مرتعا لأبواق السيارات المتعجلة وأصوات الكاسيت المرتفعة، ونداءات لحوح لبائع خبز وآخر يسن السكاكين. التلوث السمعي الذي يكتبون عنه في الجرائد ويفردون له الأبحاث في المؤتمرات يعتبر لاشيء مقارنة بنهنهات الخوف والندم التي تصدر عن الصغيرات الأخريات اللاتي ينتظرن دورهن في الصالة، أو باللهاث المضطرب الذي تحاول صديقة مهجة أن تخفيه، مثلما نجحت في طمس هويتها تحت النقاب الذي ابتاعته خصيصًا لهذه المهمة. جاءتني في الصالة وبصوت سمعته بالكاد قالت لي ان العملية قد تمت بنجاح، وأن مهجة بخير وتريد رؤيتي. كالمُسيرة بغير إرادتها أعطيت ظهري للصغيرات وصديقاتهن المذعورات الجالسات في رجاء وترقب على كراسي الانتظار.

وجدت مهجة بجسدها الضئيل مستلقاة على ظهرها كطفلة وليدة في سكون تام. صديقتها ذات النقاب التنكري تحاول أن ترفعها وتقرب من فمها علبة عصير، وترجوها أن تتناول ولو رشفة وتشجعها على الإفاقة بأن فيولا هنا "! تمنيت لو كانوا قد وضعوا بالخطأ سمًا قاتلاً في هذه العلبة الكرتونية، أو أن أذهب فورا لأبتاع نقابا مماثلاً من محل التوحيد والنور، وأرتديه ونحمل مهجة أنا والمنتقبة الأخرى ونتركها لدى ذويها في الاقصر، كما سيقت "هنادي" لتلقى حتفها على يد خالها فتغسل بدمائها عارها.

ومين ع الأسى يذكـر خلاف اللي انكوى بالنار
وجـرب الحـب وشـال بـرد الشتـا وامطـار
أنـا بإيـدي كويـت مهجتـي ولم دريـت بالنـار

تمكنت صديقتها من أن تجلسها بعد أن وضعت مسندًا خلف ظهرها. جسدها المتراخي وجسدي المتصلب ظلا متقابلين لدقائق، ثم حدث تلاقي الاضداد في لحظة. تلقفتها في صدري ونزفنا سويا نقاطا غزيرة من الدموع، كادت تكوّن بركة من المياه على السرير، تجاور بقعة الدماء القانية أسفل مهجة.

دخل الطبيب بصحبة الممرضة وحياني في لطف روتيني. أخذ في طمأنتي مثلما يعطون الإرشادات العادية للأم بعد إجراء طفلها لعملية اللوَز. " ياللا بلاش دلع. دي بقت زي الفل. خليها تشرب العصير وتغير هدومها، وبعدين تجيلي الأسبوع الجاي علشان نقفل مكان العملية وترجع بنوتة حلوة! "

مروان! ألم أقل لك؟ كل شيء عادى وعلى ما يرام!

* * *

الصمت الذي يغلفني الآن يعتبر لاشيء مقارنة بالخرس الذي نخر بداخلي منذ ذلك اليوم، حيث لم تفلح جلاجل وشخاليل مهجة أن تصدر أي رنين عذب يفرح قلبي، مثلما ظلت تفعل منذ أن تلاقت أصواتنا. سأعود إلى الوراء قليلاً وأعطيك نبذة تاريخية مثلما اتفقنا.

منذ أعوام ستة أثناء تقديمي لبرنامج "فولكلور العالم" على الهواء، اتصلت مستمعة لتطلب اغنية أسبانية. كانت نبراتها الطفولية تشبه بكرة التسجيل السريعة بإيحاءاتها الكرتونية: فيولا أنا مش مصدقة إني عرفت اتصل بيكي. أنا بسمعك من زمان وبموت في صوتك. فظيع! نفسي صوتي يبقى زي صوتك علشان ابقى مذيعة راديو زيّك و..... انقطعت المكالمة وختمت الحلقة وظلت مهجة تملؤني زهوا بالصوت الذي طالما مللته. صوتي! كما أحببت إلى جانبه نبراتها المنغمة المفرحة. التون نفسه الذي تمنيته لنفسي. توالت المكالمات الإذاعية في حلقات تالية، ثم تحولت إلى محادثات خاصة على هاتفي المحمول، ورسائل إلكترونية مطوّلة مرفق بها صور لها ولصديقاتها اللاتي يحسدنها على صلتها الوثيقة بنجمة إذاعية تعيش في العاصمة، في الوقت الذي يجاهدن فيه للحصول على موجتنا بلا تشويش في بلدتهن البعيدة الأقصر.

* * *

مراوغات طفولية وحيّل إقناعية عديدة استخدمتها مهجة لحمل أهلها على الموافقة على إقامتها في المدينة الجامعية بالقاهرة للالتحاق بكلية الإعلام، ولكي تكون قريبة مني. وبالرغم من توافر إمكانية الرؤية المباشرة لم تنقطع مهجة عن عادة موافاتي برسائلها الإلكترونية المسهبة. أحداث يومها. أشياء تعلمتها في محاضراتها. نكات صارخة تتخللها أيقونات تنقلب على ظهورها من فرط الضحك. مضايقات أو مشاعر حميمة تجاورها أيقونة تملأ الدموع المتساقطة من عينيها دلوًا.

عادة ما كنت أفتح رسالتها الإلكترونية بعدما تتصل بي على المحمول وتقول بصوتها الصغير الراكض "افتحي إيميلك.. افتحي إيميلك.. باي باي باي باي!" تولّد احتياج جديد عندي لإيميلات مهجة انبثق عن احتياجي الأساسي لمهجة ذاتها. فبتلك الشخليلة عرفت أهمية التلهي. تلهيت عن وجود قنابل موقوتة في كل ركن من حولي، مرهون انفجارها بمصادفة غير سعيدة. آريا.. رياض.. عمتي هدي! كما أنساني رنين الجلاجل الفضية نغمات خافتة من الماضي لصدى إكسيليفون بأصابع ملونة ودقات هادئة على بيانو خشبي، كنت أتمنى أن يحتويها بيت خاص بي.. له عنوان ورقم هاتف يعرفه الجميع.. وبه زوج يعيش للأبد وأولاد كثيرون يشبهون أبيهم، وبنت واحدة أضمها إلى صدري وأرضعها حنانا وترنيمات هادئة تمنحها نومًا جميلاً. فتخترع الصغيرة نغمة خاصة تبهجني. لن تقول "فا" و"لا" ستقول "ما" و"ما" ستمزجهما في نوتة واحدة تتغنى بها وهي تناديني "ماما"! وحين ينبض قلبها الصغير لفارسها المنتظر، ترتمي في حضني بفرحة ممزوجة بخوف من أن تفقده فأربت على ظهرها وأطمئنها أنني معها، وسيكون هذا هو سرنا الصغير الذي نخفيه عن أبيها وإخوتها الصبيان، حتى يكبر أميرها وينحني أمامها طالبًا للقرب منها ومنا. فتملأ دموع الفرحة عيني وأنا أشاهد المنديل الأبيض وهو يغطي كف أبيها الذي يحتضن كف عريسها وهو يعلن بفخر أنه قد زوجه ابنته البكر الرشيد على سنة الله ورسوله! إلا أنني صرت أبكي بحرقة الآن أمام المشهد نفسه. ليس فرحة بالعرائس الأخريات بل حسرة على ماجرى للحلم..للمهجة التي مزجت النغمتين منذ أعوام ستة، حتى

وإن لم تعزفهما بطريقة مباشرة. لكن الـ" ما.. ما " كانت تجلجل بها حولي في كل قول وفعل. فكما كنت أتوق لإبنة مثلها، كانت تفتقر هي إلى حضن أمومي سخي حين فقدت الأم وهي تلدها، لتعيش كالمغتربة في عشيرة من الرجال والعمات والجدات الصعيديات حتى سن الثامنة عشر. ثم تأتيني طالبة للأمان والنصح مثلما تقع تلميذة بدار حضانة في غرام الـ"ميس" وتتمناها أما لها، فأتلقفها في لهفة كبديل عن حلم بعيد بصبيان وبنات يلهون في الحديقة بين الفصول، وأنا الـ"ميس" الأحب إلى قلوبهم في إحدى رياض الأطفال.

لكن صنوج مهجة التي كانت تمسكها بين أصابعها وهي تتدرب على رقص الفلامنكو لم تلهني عن أداء دوري كأم ناصحة لها. لم أتوان يومًا عن أن أشبك زلاتي مع جلاجل قرطها لتضعها كحلقة في أذنها. وصايا عشر. عشرون. ثلاثون. مهجة! لا تجعلي العشق يفك قيد عقلك! مهجة.. لا تجعلي قلبك أسيرا مرهونا بعقداتك النفسية! مهجة.. إياك والمتزوج والأحمق والمعقد والأناني وكبير السن! مهجة.. إياك.. إياك.. إياك!

مروان! لا أريدك أن تلقى علي محاضرة في طريقة عمل العقل الباطن، والتي تتشدق بها آريا في برنامجها. أرجوك الاّ تقل لي إنني أخطأت بإعطائها إرشادات تبدأ بـ"لا"، وأن العقل اللاواعي أبله ولا يفهم سوى الحالة التي تحملها الجملة وأنه كان يجب علي أن أستبدل جمل النفي بأخرى إيجابية فأقول لها مثلا: " عليك بالشاب الرزين الأعزب السوي! " مروان. هذا مستحيل. من الصعب أن أقف في مواجهة ابنتي وأستف لها الكلمات بطريقة حسابية. كما ان مهجة ليست عقلاً باطنًا يسير على قدمين. إنها

فتاة ناضجة في الرابعة والعشرين. تمتلك بجانب عقلها الباطني عقلاً واعيًا كان لابد أن يميز بسهولة أدوات النفي والتحذير: إياك ولا وكلا!

هل كان عليّ أن أستمع للمتخصصين وأرص لها النصح وفقا لقواعد اللاوعي؟ فها هي تخذلني تماما بوعيها المرتبك حيث سمحت للعشق أن يفك قيد عقلها، وتركت قلبها أسيرًا مرهونا بعقدها النفسية، وارتضت لنفسها بالمتزوج المعقد الأحمق! نصيحة واحدة أفلتها عقلها الباطن ونجت بنفسها منها..كبير السن!

ليتني أدركت في وقت سابق أنه كان علي أن أصيغ لها خيباتي السرية في جمل إيجابية حتى لا تقع فيما وقعت أنا فيه. فلقد كنت متورطة مثلها تمامًا في التوليفة المركبة.. المتزوج.. المعقد..الأحمق.. بالإضافة إلى صفة أساسية ميزت خيبتي.. كبير السن!

أنا حكم عليّ الزمان لخبط لي قمحي على تبني
اللـي عملتـه ف أبويـا بيخلصـه ابنـي

* * *

مروان! سأقرب الشخليلة من أذنك وأهزها خفيفًا. يكفيك هذا القدر اليوم. بصوت خفيض حنون سأناديك. مروان! م..را..وان!

انتهت الجلسة. ستأخذ النفس العميق الجميل وتلفظه في ارتياح. وكما اتفقنا سيظل لسان حالك يردد جملا إيجابية..

كل شيء عادي وعلى ما يرام
كل شيء عادي وعلى ما يرام
عادي... وعلى... ما يرام!

8

فيك العتاب والكلام ساعة المنام يا ليل

مروان! هل تحب الظلام؟

وفيك من غريب البلاد وساب وطنه الحبيب يا ليل

لكنك حتمًا ستعود يومًا. بل إنَّك قد عُدت بالفعل في خيالي

وفيك من عاشق وحيران ولا طال الحبيب يا ليل

لكن هناك من لم يطل الحبيب سوى تحت جناح الليل الفضي الهادئ، حين يتلاشى نشاز الأصوات والأشخاص النهاريين، ولا يبقى على قيد السكون إلاّ من يقدرون روعة الصمت والإضاءات الخافتة.

مروان! سأحكي لك حدوتة تكاد تقع معظم مشاهدها الجميلة بالليل، لكن لكي تستمع إليها وفق ما يليق بها، سأدلل كل حواسك حتى تتماهى مع المعزوفة. فقط لا تجعل الاسترخاء يحملك على التراخي عن التنبه للمعنى الدقيق للكلمات. فأثناء التدليل سنلعب لعبة " الترجمان "

لا تفهم شيئًا. أعرف. دعنا نبدأ خطوة بخطوة.

سأُطرز الحلكة أولاً بإشعال لهب صغير متراقص فوق شمعات ملونة تنثر عبقًا برائحة البرتقال. سأفترض أنك بالفعل ترتدي ملابس فضفاضة خفيفة لتهيئ حرية الحركة، وتكشف عن رقبتك وكتفيك المنهكين من كثرة الاعتكاف على القراءة والبحث. الصّورة واضحة؟ غرفة مظلمة بها شموع معطرة وظهرك المكشوف يستعد للتدليل في مواجهتي.

سأصب أربع قطرات من زيت الصندل المخلوط بالجوجوبا وزيت اللوز وأفرده على رقبتك. سأنثره برقة بأطراف أصابعي على جانبي عنقك المتصلّب، وأمررهما في حركات دائرية صغيرة لتليين العضلات. تشعر بإحساس لذيذ، أليس كذلك؟ بل وترغب في المزيد. المزيد من التدليك والتدليل. سوف أفرك العضلات الصغيرة بالسبابة والإبهام ثم أحتويها براحتي يدّي اللتين تنزلقان في نعومة إلى أعلى كتفيك. لابد أنك تطبق جفنيك تماما مع عمل التواءات لرقبتك على الجانبين كإيماءة استجابة للاسترخاء الجميل. لن تحتاج بالطبع إلى أن أُذكرك بالنفس العميق والزفير المريح. فسوف يتولى الشهيق أمر نفسه بنفسه مع تسرب شذى الزيوت العطرية وأريج الشمع إلى مسامك.

ماذا لو حاولت إقناعك بأي شيء وأنت في هذه الوضعية؟ هل ستنهرني أو تجادلني؟ غالبا لا! لكن ماذا لو لم يعجبك قولي وبدأت تستفق من نشوتك قليلا لتردني، فجعلتك ترقد على ظهرك وضعت وسادة خلف عنقك وفوطة ملفوفة تحت ركبتيك ثم صببت بضع نقاط أخرى من زيت البابونج واللافندر والنعناع، ودهنت بها جبينك وحول عينيك مع ربت خفيف وتدليك دائري يذهب بصداع الرأس؟

هل يمكنك أن تتخيل أن تلك الاصابع الرقيقة التي تهدهدك هي نفسها حجارة أو عصى نقرزان؟ تعجب إن شئت فلن أطالبك هذه المرة بأن تردد في قرارة نفسك بأن كل شيء عادي وعلى مايرام. فأنا "المعزوفة" المفعول بها والفاعلة أحيانا في قلب الحدث، كنت أتعجب.

سأفترض أنك استرخيت تماما. سأقص عليك الحدوتة التي بدأت في العتمة والتي عادة ما تحمل بين طياتها الشيء وضده. كان الظلام في تلك الليلة إجباريا واختياريا في آن. فقد كان بناء على رسالة قصيرة باللغة الإنجليزية أتت إلى محمولي من مجهول: "يعيش أهل غزة لساعات وأيام بلا كهرباء نتيجة للحصار الإسرائيلي. أظهر تضامنك مع إخوانك في غزة بإطفاء الأنوار الليلة لخمس دقائق فقط في الثامنة مساء بتوقيت القاهرة. التاسعة بتوقيت مكة. السادسة بتوقيت إنجلترا. أرجوك انشر الخبر

انتهيت من قراءة الرسالة أثناء صعودي سلم العمارة. وبعد دخولي إلى الشقة مباشرة كان الديك الملون الذي يخرج من ساعة الحائط الخشبية يصيح ثماني صيحات..كوكو..كوكو..كوكو! أغلقت نور الصالة الذي نتركه مضاء ليل نهار. فخمس دقائق من التضامن مع الأشقاء في غزة لن تضير. أعطيت ظهري للصالة ووقفت أمام النافذة أراقب شارع 26 يوليو من زاوية جانبية. شهقة من الأعماق صعدت من صدري حين شعرت بأصابع عشرة تلتف حول رقبتي وصوت رخيم مألوف يقترب من أذني هامسا: "ماتخافيش"! ثم بدأت الأصابع في التنقل المدروس بين العضلات المجهدة والصوت يكرر بين الحين والحين: " إهدي خاااالص! "

لم أكن أعلَم أن أبيه رياض مازال بالبيت، وأنه لم يغادر إلى الأقصر هذا المساء. كما كنت أظن أن آريا وعمتي هدى تشاهدان التليفزيون كعادتهما في غرفة المعيشة بالداخل.

طلب التضامن الذي احتوته الرسالة كان لخمس دقائق فقط، لكن هدأة الظلام وفراغ البيت إلا مني ومن رياض جعلانا نتضامن لأكثر من نصف الساعة.

مروان! أنت نفسك استرخيت واستسلمت وسلمت بأنك كنت لترضخ للمدلك (الفاعل) لو كنت أنت المدلَك (المفعول به). وماذا لو كان المدلك المدلل الفاعل قد تغلغل بالفعل في أعماقك قبل تلك الواقعة بأعوام؟ وماذا لو كان هو نفسه أبيْه رياض إله المرح وأيقونة الحنان وكبير كهنة الوفاء؟ أبيه رياض الذي صار "رياض" فقط بعد ذلك المساء هو زوج سوسن ابنة عمتي المتوفاة. لا أتذكرها سوى في زيارات معدودة كانت تنزل فيها ضيفة علينا، أو بمعنى أدق على أمها عمتي هدى. كانت سوسن بالنسبة لي دائمًا مثل طيف أو روح محلقة في المكان. معزوفة خفيفة تصل بعض أصداؤها إلى أذنيك من راديو جيران بعيد. أما الآن وقد صارت روحًا هائمة بحق، فقد تحول حضورها الغائم إلى مقطوعة موسيقية صاخبة متمثلة في شخص أبيه رياض.

أكاد أجزم بما يدور في رأسك الآن. فأول ما سيخطر على بال أي محلل نفسي ويسقطه على حالتي هي الشهيرة "إلكترا" وعقدتها المعروفة وحبها المرضي لوالدها المفتقد. قلت لك سابقًا إنّ كل ما في هذه الحدوتة يحمل

الشئ وضده. فأبيْه رياض لم يحل محل الأب يومًا. صحيح إنه يكبرني بما يقرب الثمانية عشر عاما، لكن تعال وانظر إليه وقارنه بأي شاب يصغره بعشرة أعوام وسيكون ميزان الحيوية في صالحه. أكتاف عريضة. لا كرش. تي شيرت ماركة لاكوست في الغالب، باللون البرتقالي أو الأخضر أو الزهري. بنطال جينز أزرق شتاء، وشورت كاكي تحت الركبة صيفا. حذاء كاوتشوك ماركة ريبوك أو أديداس طوال السنة. سلسلة فضية عريضة تحيط برقبته ويتدلى منها خرطوش عليه حروف اسمه بالهيروغليفية وتزين شعيرات صدره البيضاء. لابد أنك تظن نفسك قد أمسكت بدليل يؤيد نظريتك، فشعره الأبيض لم يكن سوى هالة مضيئة تتوافق وعينيه الخضراوين وتحدث حالة من الكونتراست مع بشرته، التي لفحتها الشمس المتعامدة على معابد الأقصر وأسوان وسفح الأهرامات. ألم أقل لك إننا سنلعب لعبة الترجمان؟ فهو من كان يعرف نفسه هكذا في لكنة صعيدية أو نوبية ضاحكة حين يُسأل عن المهنة: " ترجمان يا ستو هانم! " فلقد كان يأمل بعد كل تلك الجولات الشاقة كمرشد سياحي أن يستقر نهائيا في مكتب مكيف كمدير لشركة بها كتيبة من الترجمانات في قلب القاهرة. العاصمة التي ينفر منها قاطنوها وفي الوقت ذاته تشد النداهة كل من يبعدون عنها بسحر مغناطيسي، تماما مثلما جذبت جلجلتي مهجة!!

لماذا تتململ في نومتك؟ إنه خطئي. لابد أن أعدل لك وضع الوسادة التي خلف رقبتك، وأصب مزيدًا من زيت الورد العطري على أطراف أصابعي، ثم أمررها من تحت أذنيك حتى كتفيك على جانبي عنقك، ثم أفصل أصابعي وأحركها بقوة على المنطقة نفسها وكأنني أنقر على

طبلة. هل أفاقتك تلك الحركة؟ هل أحيت عضلاتك المتصلبة؟ مروان! هل تعرف كيف اكتشفوا صوت الطبلة في الأزمان الغابرة؟ كانوا ببساطة يلقون الحجارة على أجساد الحيوانات الميتة المنتفخة فتحدث رنينا. من هنا عرفوا خاصية تذبذب الجلود المشدودة عند طرقها، ولما أعجبهم هذا الصوت قاموا بتثبيت الجلد على إطار أو جذع شجرة مجوفة فظهرت تكوينات إيقاعية مختلفة. وبعد ذلك صارت الطبول من أهم آلات الطرق وأدخلوها في كل طقوس حياتهم؛ الفرح والحزن والعبادة والحرب.

هكذا كان رياض هو النقرزان الذي أشعرني بحيوية الطبلة، فلقد كنت من قبله مثل جلد مشدود لحيوان منتفخ لم يحاول أحد طرقه. ثلاثون عامًا مرت بلا قصة حقيقية. هواتف تأتي على الهواء أثناء إذاعتي للبرامج من مهووسي الإتصال بمذيعي الهواء. فنيو صوت ينظرون في إعجاب من خلف زجاج الكنترول ولا يجرؤون على تخطى الحاجز الزجاجي. بضع محاولات فاشلة لمقابلات مرتّبة عن طريق أصدقاء تغريد من خلف ظهر آريا، حيث كانت لا تؤمن بهذه الطريقة وتنصح مستمعاتها في تطرف بألا يتزوجن إلا بعد توافر عنصري الانجذاب الجسدي والتوافق الفكري، وتؤيدها منزليا دادة عطيات بمقولتها المأثورة "قعدة الخزانة ولاجوازة الندامة"! ها هي سيرة دادة عطيات قد جلبت المواويل الكئيبة إلى رأسي مرة أخرى!

يا حمام جارد يا حمام جارد
علـى بيـت نـاس عمي
كـل الـبـنـات اتجـوزوا
وأنـا حـازتـني أمـي

ثمَّ عمتي التي تردد دائمًا كلما سمعت بخبر خطبة لواحدة من بنات العائلة أو زغرودة ترن في العمارة: "يا أختي بلا وكسة.. خدوا إيه اللي اتجوزوا؟"

يا حمام جارد يا حمام جارد
علـى بيـت نـاس خـالي
كـل الـبـنـات اتجـوزوا
وأنـا وقـف حـالي

أما تغريد التي تكبرني بعامين فقد ظل هذا الجزء الناعم من حياتها مخبوءًا تمامًا و لم تطلعنا سوى على تخيلها للبرامج التي ستقوم بإعدادها في الدورة الإذاعية المقبلة، أو بمكان المؤتمر الذي ستقوم بالترجمة الفورية فيه، إن كان في العاصمة أو بإحدى المدن، إلى أن اختفت هي تمامًا خارج الحدود لتحقق حلمها بعد حصولها على المنحة الدراسية بإنجلترا ثم إرسالها لنا بخبر زواجها من طبيب مصري يكبرها بخمسة عشر عاما.

مروان! لا تقل إن هذا دليل آخر على حلمنا بالزواج من أب، فوجود أبي قبل اختفائه القدري لم يمثل لي سوى بيت هادئ به بنتان صغيرتان تلهوان بالمكعبات الملونة بين الحجرات، وامرأة سمراء جذابة ذات لكنة لاتينية محببة تملأ منور العمارة بروائح ونكهات حريفة من سجق الكوريزو ومشاوي الاسادو وكباب حلة الباريلادا – تعاونها دادة عطيات ليوم واحد في الأسبوع، كما كانت تكوي لنا فيه ملابسنا الصغيرة، وتحيك شورتات وجونلات مزركشة على الماكينة السنجر بغرفة الجلوس. وأجمل ما كان

يُميز حضرة الأب هو عدم ترددنا على المولد والزار بالإضافة إلى خلو البيت من تنكيت وتبكيت عمتي هدى. أما بابا في حد ذاته فقد كان مجرد طيف مثل سوسن ابنة عمتي، وكأن الذين يموتون مبكرًا يعلنون بأنفسهم عن وفاتهم عن طريق وجودهم الشفَّاف أثناء حياتهم على حد قول عمتي هدى، وهي تنوح كلما أتت سيرة ابنتها "كانت بنت موت زي خالها" الأمر الذي لا أتذكره حقا وأود لو يعود بابا لأعايشه هو عزفه على آلة الساكسفون التي طالما وصفت لنا آريا براعته في التقسيم عليها.

أما إن كنت ترغب بالتحدث عن العقد النفسية، فدعني أخبرك بأن الرجال الكبار كانوا مصدر رعب وقلق أثناء طفولتي وأولهم خالك النفير.. معلن نهايات مرضى العمارة. وثانيهم عم حمزة فراش الفصل في العام الثاني الإعدادي. هذا الرجل الضئيل الذي كان يلملم فوضى ومخلفات ثلاثين تلميذًا. يضع الكراسي فوق المكاتب الصغيرة وينثر غبارًا هائلاً أثناء كنسه للفصل، ثم يدلق دلوًا يمتلئ بالماء ثم يلمه قذرا في خيشة خشنة زحفًا على ركبتيه ويعصرها وهو يتقطر عرقًا، بعد أن يكون قد فعل الشيء نفسه في ثلاثة أو أربعة فصول. كنت أرمقه في تعاطف من غرفة المدرسين حيث كانت تستبقيني مسز "خطاب" بعد المدرسة لتدربني على ما سأقوله في الإذاعة المدرسية باليوم التالي. وذات يوم نسيت مقلمتي في الدسك فدخلت إلى الفصل المفتوح ذي الكراسي الموضوعة فوق المكاتب وذرات الغبار المعلقة في الهواء وعم حمزة يمسح في استكانة حبات الندى عن جبينه. مقلمتي كانت في دكة الصف الثاني، إلا أن عدم ثقتي في قوة نبراتي مع ظني الطفولي بأن الكراسي العالية قد تحجب

الصوت جعلاني أذهب إليه في آخر الفصل لمجرد أن أتعطف عليه بكلمة " إزيك يا عم حمزة؟ " للمرة الأولى شهدته يبتسم فابتهجت لتأثير فعلتي الخيرة في نفسه. وفجأة أخذت ابتسامته تزداد في الاتساع لتكشف عن أسنان سوداء منفرة. وبدلاً من أن تضيّق الابتسامة العينين كما هو شائع، اتسعت عيناه أيضا وبرزت بؤبؤتاه في تركيز مخيف، في الوقت الذي أطبق فيه بأصابعه العشرة على ذراعيّ وأخذ يضغطهما ويحلهما في إيقاع منتظم ومتزايد وأنا أبعد عنه بسنتيمترات والجفاف الذي يملأ حلقى يحجب صوتي ويشلّ حركتي. دقيقتان خارج الزمن وضع لهما صوت مسز خطاب نهاية وهي تناديني من الغرفة المقابلة – حل بعدها عم حمزة قبضاته النابضة عن ذراعي فركضت لاهثة خارج الفصل. إلاّ أنه ظل يحيي ذكرى الدقيقتين يوميًا كلما دخلت الفصل بأن يجحظ لي عينيه بالطريقة نفسها ويوسع ابتسامته الداكنة!

لم يكن هناك ما أتهمه به فقد كان العجوز الطيب – من وجهة نظر الجميع – يكدح سعيا وراء رزقه في ذلك اليوم البعيد، وأنا التي ذهبت إليه بقدميّ. هذه هي ما يسمونها مخلفات لحظات طفولية مريرة، تقبع في اللاوعي وتطفح لاحقا على سطح وعينا الناضج. وقد تكون لحظة مثل تلك هي التي جعلتني أتشبث بك وأنت بعد بلوغك لسن الرشد ظللت الولد الضئيل اللاه بالبيانو الخشبي والإكسيليفون وقطط وأطفال العمارة!

لابد أنك لفظت زفيرا ممتلئا بالضيق الآن. ما رأيك لو قطرت نقطة من زيت اللافندر المنعش على أطراف أناملي، وحككت بها أنفك ليخرج

زفيرك التالي هادئًا معطرًا؟

هيا نعود إلى لعبة الترجمان. لعبتنا القديمة المفضلة في تستيف حروف الـ"سكرابل" والإتيان بكلمات لها معان لا يعرفها من كانوا يلعبون معنا من زملاء الكلية، ونظل في جدال إلى أن يحسم الأمر قاموس وبستر أو المورد. سيكون الفيصل بيننا الآن هو "مختار الصحاح"، فالترجمة عربي–عربي.

نقرزان: اسم مشتق من كلمة "نقر أي ضرب و"زن" أي صوت. ويقال "ينقرز" أي يضرب بالكلام.

دربُكّة: طبلة. ولها نفس حروف كلمة دربكة أي "صخب"

بعد وفاة أبي بعامين تقريبا حلّت عمتي هدى على دارنا في زيارة كان يفترض أن تكون قصيرة، إلا انها امتدت إلى الأبد. كان ابنها قد تزوج حديثا في شقتها بطنطا، وأتت بحجة رعايتنا أثناء شيفتات آريا الليلية، ثم أفصحت عن مكنون نفسها بأن هذا البيت استأجره والدها باسمه، وأن لها فيه أكثر مما لنا نحن بنات المتوفى والخواجاية وش النحس!

كانت آريا قد بدأت تنخرط ثانية في عشقها القديم للحضرة وأصحاب المقامات والمتصوفة، وأخذت تعمل على إكمال بحثها المقارن عن الموالد القبطية والإسلامية في حوض البحر المتوسط، والذي لم يكتمل أبدًا ليتبقى منه تلك الزيارات الموسمية للأولياء، فضلا عن المقالات التي كانت تكتبها في الإيجيبشان جازيت عن قصص النساء اللاتي يذهبن للزار الذي تقيمه صديقتها سميحة الكوديا في حي بولاق المجاور.

بقدر ما أفزعتني دقات الدفوف والأصوات النسائية الزاعقة، وهزات أصداف راقص المنجور مع احتراق البخور وروائحه النفاذة، بقدر ما أدهشت هذه الأجواء عمتي هدى، وصارت آريا هي نافذتها على حياة افتراضية غنية بالتهليل والذكر وغواية الخرافة وشكاوى المتضرعين ولوعة النسوة، لتشعرها أنها أفضل حالا منهن وترمم بعضا من أسى عميق خلفه فقدان ابنتها سوسن.

مقام الصبا الذي تُلون به عمتي هدى جملها الافتتاحية لأي موضوع، ينفذ إلى وجدانك مثل سكين بارد.. لا هو يذبح ولا منه يُبقيك سالما. فقط يجعلك تنز ألمًا ممزوجًا بالصدأ. أتعرف ماذا يشبه مقام الصبا هذا؟ صياح الديك وآيات الوعيد في ترتيل القرآن ومواويل الحسرة وعدودة الندابات. أما حين تسمعه يلون جملة أو تعليقًا فيكون القائل قد عقد النية على أن يملأك بالإحساس بالذنب وتحمل عواقب خطأ لم ترتكبه. سوف تجد غصة شائكة في حلقك حتى وإن لم تكن طرفا فيما ترويه عمتي عما فعلته بأخوتها الرجال وإرسالها طلبات على أيدى محضرين تخطرهم فيها بالقضايا التي رفعتها عليهم في خلافات لا تنتهي على سبعة قراريط أرض أو كيف كانت تفرس زوجة ابنها وتبيتها باكية.

تخيل أن تكون هذه الطبقة الصوتية الكئيبة هي مفتتح نهارك، حيث تحتل عمتي السرير المقابل لي وتبدأني يوميًا بنبرتها اللائمة بأن "الساعة بقت تمانية يا ست هانم وإنتي غرقانة في النوم! قال دول ستات وعايزين يتجوزوا ويفتحوا بيوت!" وقد تمتزج الكلمات بلهجة تهديد حين تأتى سعيدًا من غداء مع زملاء فتكرر ما لا تمله أبدا "وصينية المكرونة

دي هتترمي؟!!" ناهيك عن إسم تدليلها المفضل لي حين داهمتني نوبة التلعثم في طفولتي " الثت رباب أم نث لثان "!

كرهت أن تتركنا آريا تحت قرعات طبول الحب الصادرة عن مفردات عمتي هدى اللاذعة، التي كانت تطولني أنا وحدي دون تغريد أختي، فأنا التي ابتليت بمرافقتها في الغرفة، أما تغريد تنام على أريكة في غرفة آريا!!

هضمت على مضض فكرة أن عمتي وجودها أساسي لتتولى شئون الطبخ وإدارة البيت، حتى نتفرغ نحن لدراستنا وعملنا وتعكف آريا على إعداد برامجها ومقالاتها التي تدر دخلا شهريا يضمن لنا حياة كريمة، وكان يداخلني بعض التعاطف تجاهها حين أراها منكفئة في فترات الأغنيات التي تلعبها كفواصل بين البرامج والنشرات والتعليقات السياسية التي تقرأها على الهواء، إلى أن كان اليوم الذي نفذت فيها رزمة أوراقي الفولسكاب فذهبت لآخذ بعض الوريقات من لرزمة التي في درج أريا، فوجدت قصاصات ورقية بأحجام وألوان وخطوط مختلفة موضوعة في ملف شفاف مرفق بها أظرف خطابات. أضأت الأباجورة الصغيرة لتسقط بقعة الضوء على القصاصة التي على القمة:

أدخل عالمك على موسيقى السامبا
ودقات أقدامك في عزف وضجيج
الصالصا
أدخله

وأنا أعرف أن الحياة حوار سخي
وعالم شقي
والتسامر معك دنيا لازوردية
والنوم على كلمات امرأة مثلك
وجدان ملتهب
وسماع صوتك الخاص نبض فياض
كالنهر. [1]*

إلى آريا.

أي عالم شقي وحوارات سخية تدور بينها وبين ذلك المرسل، الذي جبن عن التوقيع باسمه لكنه يقر بجرأة بأنه ينام بوجدان ملتهب بعد سماع صوتها الفياض كالنهر؟

قصاصة أخرى على هيئة تلغراف بتاريخ قديم: "صباح المرأة التي تستحي اللغة في التعامل معها وصفا أو تحية "! ثم وريقة بخط انجليزي مائل: " لا يمكن تصنيفك أو تعريفك أو تصوّرك كباقي النساء!

آريا! أنت تلهين وتتدللين وتتلذذين بسماع كلمات العشق في الوقت الذي تنصحين فيه مستمعاتك وقارئاتك بالتريث والتخير الصائب، وأحيانًا تختارين لهن حل الاستغناء! هل أتتك الرسائل من شخص واحد أم من بضعة أشخاص؟ الآن فقط أم منذ أعوام؟ منذ عام؟ عامين؟ أم قبل وفاة أبي؟ هل قصدت إنهاك قلبه المتعب بصوتك المغوي وغنجك الليلي حتى يسلم الروح مبكرًا، وتتفرغين لعشاقك، مثلما ابتُليتنا بعمتي هدى

للسبب نفسه؟ وبأي حق تنصحينني بالتروي والتعقل والتدبر واجتناب الأهوج والمتزوج ومن يكبرني كثيرًا؟

سأسلم القلب والوجدان لأول عازف على الوتر ما يهم هو أن يمتلك المهارة الكافية لتمرير القوس على جسد الكمان..الفيولا ويستنطقها لحنًا بديعا أو حتى معزوفة مُكررة تشعرها فقط أن باستطاعتها مداعبة بعض الأرواح، حتى وإن حولوها إلى أية آلة أخرى أدنى منها: دف.. طبلة.. دربكة!

مروان! أعتذر. أعرف أنه من قواعد التدليك ألاّ يتحدث المدلك (الفاعل) وأن يلتزم بالهدوء ليشعر المدلَّك (المفعول به) بالطمأنينة والاسترخاء. لكن ها أنا أمرر توتري إلى عضلاتك بالضغط غير المتناغم على أمكنة متفرقة مثلما كنت اتنقل في غرفات البيت أثناء طفولتي، لتغلق كل منهن الباب علينا، وتستخدم أذني وعاء تصب فيه ما يفيض عن طاقتها، ربما لتاكدهن أنني أمتلك القدرة على أن أوصد فمي، بعكس تغريد التي كانت تنقل كل تفاصيل البيت إلى شقق العمارة، أو لأنني حتى إن حاولت أن أحكي سرًا فسوف أتلجلج فلا يفهم المتلقي ما أقول. وقد كانت فترات تلعثمي وانطوائي هي أيام التنفيس بالنسبة لهن، حيث تخرجن بعد تلك الثرثرة في أذني هانئات البال، وقادرات تمامًا على تلوين أصواتهن بالنبرة التي تليق بأخت زوجة طيبة أو ربة أسرة محبة أو خادمة وفية.

عمتي هدى أثناء غياب أمي في شيفت الإذاعة اللّيلي: "عارفة أمك دي؟ مالهاش أهل. أبو كي لمها من الشوارع واتجوزها. وياريت تمر فيها.

كانت نحس على العيلة. مافيش أسبوع من جوازهم وماتت أمي من حسرتها على ابنها ووراها أبويا.. والطربة ماتقفلتش إلا أما خدت الغالية سوسن حبة عيني!"

دادة عطيات بعد خروجي من غرفة عمتي: "عارفة عمتك دي؟ بنتها ماتت مفروسة منها. دي طفشت من وشها وراحت مع سي رياض آخر بلاد المسلمين علشان تخلص من لسانها. تصدقي وتآمني بالله؟ دي كانت كل ما تشوفها تنقرزها وتعايرها إنها مابتخلفش ومرة هددتها إنها هتجيب عروسة لسي رياض إن ما جتش تزورها مرتين في الشهر والست آريا أمك فرفوشة وقعدتها حلوة صحيح بس جلدة وهتموت على القرش!"

أريا بعد عودتها منهكة من العمل: "عمتك الهباب دي عاملالي مشكلة مع سواق عربية الإذاعة. وقفت شتمته من الشباك أما زمر تلات مرات وصحاها. بس عاملالي فيها مديرة. شاي وقهوة شاي وقهوة.. وأكلها بقى صايص من غير طعم. لولا إني مش فاضية كنت وريتها شغل الطبيخ إزاي! وعطيات دي كمان بتتملعن على الآخر البيت زي الزفت وعايزه فلوس فلوس فلوس!"

وفي صباح اليوم التالي حين أستيقظ على هبدة فتح الشيش الذي تدفعه عمتي بقوة عمدًا لإيقاظي، وأعبر الصالة لأدخل الحمام، أجد ثلاثتهن يلتففن حول مائدة صغيرة ويلكن اللقيمات الأخيرة من إفطارهن الشهي، لتبدأ دادة عطيات في قلب فناجينهن لقراءة البخت لهن ثم يتفقن في

ود وحماس على الذهاب ليلاً إلى سميحة، ابنة خالة عطيات، لحضور زار حيث تنخرط عمتي في التفقير مع النسوة وآريا في كتابة عذاباتهن وأسباب لجوئهن للتصالح مع الأسياد التي لا أدري إن كان الباعث عليها هو النفور من الرجل أم رغبة في التودد إليه!

يا قلبي سيبك من اللي عشرته بتعل
وتعبنا وياه قوي مالقناش ولا حل
عمال بيزرع شوك ف طريقنا اللي زي الفل
سايبك بتربط يا قلبي وهو من وراك بيحل

قل لي بالله عليك كيف لا تضطرب أصابعي فوق عضلاتك، وربما أجهدتك بدلاً من تهدئة أعصابك وأنا أتذكّر خضوعي لتلك الإيقاعات البدائية التي لا تمثل سوى "نقرزان" يحدث "دربكة"؟ هل عرفت الآن أهمية لعبة "الترجمان"؟ فحتى إن كنت قد أتعبتك قليلاً بعصبية أصابعي يكفيك أنني أضفتُ إلى قاموسك معاني كلمتين! ما رأيك لو واصلنا اللعبة بكلمتين لاتينيتين، ستجدهما حتما في قاموس وبستر أو المورد:

الإيروس: غريزة الحياة.

الثاناتوس: غريزة الموت.

لقد انطفأت شمعتان. سأذهب لأُوقدهما أو أستبدلهما بفواحة. سأصب نقطتين من زيت الفواكه وأشُعل شمعة صغيرة بداخل الفواحة.

استمتع بالرّائحة والنكهة حتّى أُسخن زيت التدليك في حمام ماء

دافئ، ثم أصب القطرات المركزة في راحتي يدي، وأمررهما بهدوء من رقبتك إلى كتفيك حتى عمودك الفقري، ثم أكافئك بمنحة إضافية.. تدليك دائري وأفقي لساقيك المشدودتين حتى تسترخى كل بوصة في جسمك وتسلم عينيك لنوم جميل على نبراتي الناعسة وهي تروي لك حدوتة حب.

9

إيروس ولاّ ثاناتوس؟

مرواان! مروااان!!

ربما أكون قد أخطات حين دغدغت عضلاتك وحملتك على الاسترخاء، قبل أن أحكي لك حدوتة الحب التي وعدتك بها. يبدو أنك على وشك الذهاب في نوم عميق. لا تفعل أرجوك. فهذه الحدوتة ليست كالحواديت. لها بدايات كثيرة متشابهة حيث يوجد في كل جزءٍ منها "الإيروس والثاناتوس معا تتذكّرهما؟ الإيروس: الحياة. والثاناتوس: الموت. النور والظلام. حلاوة الشهد ومرارة العلقم. لذا وجب عليك أن تتيقظ. فلن أحكيها بترتيبها الزمني. سأقص عليك مشاهد متفرقة ولتعد أنت ترتيبها وتقرأ ما بين السطور إن فاتني أمر، فأنت الذي سترشدني إن كانت قد انتهت أم لا ألست الحكيم العارف ببواطن العقول؟ وألست أنا نزيلة المصحة المعفاة من الحرج؟ ستكون مهمتك أن تجد الإيروس وتنتبه للثاناتوس، فكلما صادفتهما بعد كل موقف قل "إيروس أو "ثاناتوس"! نعم مثل لعبة ملك وكتابة. هكذا سأضمن انتباهك طوال الحدوتة. سأعلّمك في البداية أين تقولها ثم قلها في سرك بعد ذلك حتى لا تفسد الحكي.

صلّي على النّبي

بداية: عمتي تضع سماعة التليفون بعد حوار قصير مع رياض، نسمع منه كلمات طرف واحد: طب يا حبيبي ماتعملش ف نفسك كدة. البقاء لله والدوام لله. جامع إيه؟؟ اكتبي عندك يا رباب. جامع مصطفى محمود. خلاص يا حبيبي. لأ طبعا هنيجي بس إنت استهدى بالله، واطلبلها الرّحمة! "

(ثاناتوس)

أغلقت عمتي الخط ولوت شفتها السفلى ثم قالت: " إيه يا اختي الهبل دة؟ بيعيط على عمته! وليّة كان عندها فوق التسعين سنة. هي كانت لسة عايشة أصلاً؟! أمّال أنا أعمل إيه وبنتي راحت وردة في عز شبابها!!! "

(ثاناتوس)

جرت هذه المكالمة بعد فترة انقطاع طويلة لم نرَ فيها أَبِيْه رياض. ربما كان قد مرّ علينا خلالها في بضع زيارات خاطفة، لتخليص مصالح في القاهرة، وللاطمئنان على عمتي هدى، ثمّ يعود بعدها إلى مقرّ عمله الأصلي في أسوان.

كان المقرئ قد انتهى من الرُبع الثالث، حين وصلتُ متأخرة إلى جامع مصطفى محمود، بينما عمّتي، وآريا وتغريد كُنَّ بالداخل منذ بداية العزاء. وكان أَبِيْه رياض يقف على رأس مُتلقّي التعازي أمام مدخل الجامع حيث أنزلني التاكسي، ليراني رياض للمرّة الأولى كـ" فيولا ".

مروان! لماذا سكت؟ أتحتار أيهما تقول؟ قل: إيروس.. إيروس.. إيروس.. غريزة الحياة. فلابد أن يرشدك حسك الفني إلى معنى أن يرى الرجل امرأة كـ"فيولا" الفيولا ذات الجسد الملئ بالمنحنيات الأنثوية، سواء كانت صغيرة كالفيولينة أو ضخمة كالتشيللو. ما يهم هو اكتناز منطقة الصدر والكتفين ثم خصر ضيق ملفوف يؤدي إلى نصف أسفل ممتلئ، يتواءم والجزء العلوي. وأجدر ما يظهر هذا التشكيل المتناغم هو فستان اسود شانيل لاصق، ذو فتحة طويلة من الخلف وحذاء لامع له كعب مدبب يرتفع بالجسد عن الارض ويسمو بالأنوثة إلى مقام النهاوند. ولا تنس تأثير تلاقي الأضداد ها هنا.. حلكة الثوب وبياض البشرة.

قلت له: " البقية في حياتك يا أبيه رياض.

قال: " أبيه ريـ....!! حـ..حـ..ياتك الباقية يا فـ..فيولا! "

كانت هذه هي المرة الاولى التي يناديني بها "فيولا"، فقد كان دائما يدللني بإسم "ربرب" أو ربربة كناية عن جسدي المكتنز، والذي كنت أفضل أن أخفيه بقمصان طويلة فضفاضة تصلح للجنسين وبنطال أو جونلة واسعة أيضا. كما كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها شخصًا غيري يتلعثم وكم يبعث هذا الأمر على الضحك والشفقة في آن.

لم أدرك وقتئذ الباعث الحقيقي على تلعثمه. اضطراب؟ حزن؟ مفاجأة؟ لكنّي أحسّست بشرارةٍ كهربية سرت في أوتاري ما إن لامستني أنامله برغم برودة أيدينا. كانت برودة تبعثها لذة المغامرة الممزوجة بخوف الاقتراب من شيء ممنوع أو مُحرّم! إيروس أم ثاناتوس لا أدري.

المهم هو أنك تستطيع أن تعتبر هذا اليوم بداية أُولى، سبقت بداية يوم انقطاع الكهرباء والتضامن مع غزة.

* * *

يا حبيبي عُد لي تاني.. يا حبيبي عُد لي تانى
قالوا حبي.. قلت قلبي.. قال بحب الأولاني

تتذكر تلك الأغنية القديمة ذات اللحن النوبي لشادية؟ كان أبيه رياض يشدو بها بطريقة فكاهية وهو يرتدي الطاقية ذات المثلثات الملونة الزاهية، ويهز رأسه وكوعيه ويحوّل أوتار صوته إلى السلم الخماسي، حين كان يأتينا في الماضي البعيد بصحبة سوسن قبل رحيلها. وفي مشهد آخر كان يمسك بصينية الشاي المستديرة، وكأنها دف ويبدأ في الطرق عليها متمايلاً بكل جسده يمينًا ويسارًا وساخرًا من آريا ومشروع بحثها الذي لم يكتمل عن الزار.

كانت آريا ترمقه بنظرة جانبية وتدير رأسها، بينما ننخرط نحن أنا وتغريد وعمتي وسوسن في نوبة ضحك قد تؤدي إلى جدال وتوتر بين آريا وأبيه رياض.

مروان! اسمح لي أن أتمدد على الشيزلونج وأغمض عيني، لأنني سأبوح بأمر كنت أخجل أن أعترف به حتى لنفسي في ذلك الوقت. كما أنني لا أريد أن أرى نظرة الانتصار في عينيك لأنك قلت لي من قبل إنني أحببت رياض مثل أب. نعم. الصينية اللامعة التي كان يستخدمها رياض كدُف، كنت أتخيلها آلة الساكسفون التي قالت آريا إن أبي كان يعزف عليها.

كما كنت أرى أبي في خيالي أسود أو بني اللون مثل الرجل الذي في صورة عازف الساكسفون في غرفة نوم آريا. ومثل الشخصيات النوبية التي كان يقلدها ابيه رياض، على الرغم من وجود صور حقيقية لأبي تدل على بياض بشرته التي ورثتها عنه دون تغريد. أتعرف ماذا أيضا؟ كان يداخلني إحساس بالارتياح حين كان يجبرنا رياض جميعًا على المكوث في البيت وعدم الذهاب إلى الحضرة، ولأنه كانت له كلمة عليا على آريا التي يقاربها في العمر. الغريب أن هذه الأمنية بأن يكون رياض أب لي قد تحولت إلى خوف من أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه حقيقة، حين ماتت سوسن وصار أبيه رياض بلا زوجة وتكرر تردده علينا كلما جاء إلى القاهرة. عمتي هدى أيضا كانت تلفت نظر آريا بلهجة لاذعة إلى ملابسها المنزلية الكاشفة، إضافة إلى حواراتها الهامسة مع دادة عطيات بأنها "لا تخيل عليها الخناقات اللي كل شوية تقوم بينهم دي.. وعلى رأي المثل ما محبة إلاّ بعد عداوة!"

كان خوفي يشبه كُتلة يابسة تقف في حلقي كلما أظهر أبيه رياض مزيدًا من لطفه المنزلي وهيمنته الأبوية. لا أدري هل تلبستني روح أبي وصرت غيورة على آريا أم كنت أغار عليه هو؟!!!

قالوا حبي.. قلت قلبي.. قال بحب الأوّلاني.

هل أحببت أبيه رياض "الأولاني"، أم وقعت حين كبرت في غرام رياض؟!!

انتهى الاعتراف. سأسحب شهيقًا ألفظه تنهيدة ارتياح تشبه تلك التي

أراحتني، حين سمعت في أحد حوارات أَبيه رياض مع عمتي وهو يربت على يدها، مُؤكدًا تجديد عهده بأنه لن يكون زوجًا لامراةٍ غير سوسن كما وعدها وهي على فراش مرضها.

* * *

مروان! لقد غيرت رأيي وقررت أن أرتب لك ما أعرف ترتيبه من المشاهد، حتى لا أدخل التشويش على رأسك الذي أحتاجه بشدة ليفسر لي مالا أفهم. سأستقيم أيضا في جلستي وأنظر لك وجها لوجه فربما وجدت في تعبيراتك تفسيرًا لما التبس عليّ.

المشهد الأوّل: أبيه رياض وهو يُداعبني في طفولتي بالسلم الخماسي، الذي أعشقه لأنه ينتمي للناس المصنوعين من الشوكولاتة، ويرتدون الملابس الناصعة ويشربون الكركديه ويأكلون الدوم ذا المذاق الحلو المر ربما كان من طول عشرته مع أطلال الفراعنة يعرف انهم قد ربطوا بين النغمات والأجرام السماوية في تأثيرها على الحالة المزاجية للبشر. كان سلمهم الموسيقي في البداية خماسيًا، لأنَّهم عرفوا خمسة كواكب فقط، وعندما أضافوا الشمس والقمر للكواكب الخمسة أصبح السلم الموسيقي سباعيا. تمامًا مثلمًا سيأخذني أبيه رياض لاحقًا إلى أغنيات معاصرة تؤثر بقوة في حالتي المزاجية وإن كانت لا تخلو من تأثيرات جنوبية.

المشهد الثاني: حين اجتمع الإيروس والثاناتوس..الحياة والموت أمام مسجد مصطفى محمود، لما تحولت الرباب إلى فيولا بعد أن لفها الفستان الأسود، تمامًا مثلما استبدل رواة السيرة الشعبية آلة الربابة بالكمنجة. أود

أن أضيف هنا أن الفستان الأسود هذا سيكون بمثابة مفتاح صول للعديد من المواقف التالية الخانقة أو المبهجة مع رياض. تخيل أن مفتاح صول الذي تبدأ به الألحان يشبه ما أفعله معك الآن؟ إنه لا يبدأ من السطر الأول كأية بداية طبيعية بل ترتكز دائرة بدايته مع السطر الثاني، ثم يبدأ في التمايل والالتواء بأنوثة ودلال على باقي السطور، برغم أنه يحمل اسم ذكر، مثله مثل رياض الذي يرى وراء أي فعل أنثى تتثنى. والله ليس بعيدا عليه لو لمح مفتاح صول لتخيل دائرة ارتكازه سرة امرأة، وللف وسطه بحزام من الشيفون الأحمر وأمسك بطبلته وأخذ ينقر له دوم.. تاك.. إيروس دوم.. ثاناتوس تاك، كما كان ينقر لسوسن وهي تتلوى أمامه مثل أفعى، قبل أن تسقط مغشيا عليها، ليكتشفوا أن المرض اللعين كان يجول في التفافات أمعائها.

المشهد الثالث أو البداية الثالثة لم تكن تخصني أنا ورياض وحدنا، بل كان حدثًا من أغرب ظواهر الكون، ويسعى إليه البشر من كل صوب وحدب. قل ألفين.. ثلاثة.. أربعة آلاف إنسان. إلا انهم لم يكونوا معنيين بالنقرات الخفيفة التي استرقها رياض على كتفي وظهري، بحجة حمايتي من الزحام، بل احتشدوا فقط، ليشاهدوا تعامد الشمس على وجه رمسيس الثاني في معبد أبي سمبل.

كانت هذه الرحلة البديعة تتويجا للأيام العشرة التي قضاها رياض في بيتنا، بعد وفاة عمته المسنة، لتخليص اجراءات إعلام الوراثة، بالإضافة للسعي وراء تصريحات شركة السياحة الخاصة به في القاهرة.

في تلك الأيام العشرة تدهورت الحالة الصحية لعمتي فجأة. قيل ارتفاع في الحرارة نتيجة نزلة برد حادة وقيل تكسير في العظام بسبب الهشاشة، وقيل دوار لخلل في الأذن الوسطى، وقيل آلام في الرأس من الصداع النصفي. كانت التشخيصات السابقة بناء على فحوصات وأشعة تولى رياض القيام لعمتي بها عند حفنة من أكبر الأطباء في مختلف التخصصات. وفي النهاية كانت الكلمة العليا له هو: " أنا شايف إن معندهاش حاجة.. نفسيتها تعبانة شوية ومحتاجة تغيير جو. هنسافر أسوان كلنا الأسبوع الجاي"

بقدر ما حظى أداء رياض البطولى تجاه عمتى بإعجاب الجميع حتى آريا، بقدر ما آثارت غيرتى رعايته لأم زوجته المتوفاة. شعرت أنه كان وما يزال وسيظل لسوسن وحدها. زوج راهب نذر نفسه للوفاء لميتة، فخجلت من كل ما خطر ببالى من خيالات مراهقة لا تليق بفتاة تجاوزت الثلاثين، بأن رياض قد نظر لي كأنثى ولو لثوان. حتى يوم أن كان يقود السيارة وأنا على يمينه في أحد شوارع الزمالك الجانبية التي تتشابك الأشجار على دفتيها، وتحجب ضوء القمر ونور الأعمدة ليصير الظلام طاغيًا. ظهرت فجأة امرأة ترتدى النقاب لتعبر الشارع ورياض مندمج مع أغنيات محمد منير المنبعثة من كاسيت السيارة. أمسكت بذراعه بقوة وكأنني سأفرمل السيارة هكذا. إلاّ أنه كان قد هدأ السرعة بالفعل وتفادى المرأة.

قال: "خفتى على الست ولا على العربية ولا عليا؟ للمرة الأولى أيضا أشعر أن تلبك لسانى بداخل حلقى لا يصاحبه تيبس، بل ليونة وتنميل لذيذ

يخرج بالمفردات المبهمة في غنج الكمنجة ودلالها. قلت: ع الست.. ووو.. على... العربية!"

إنتي فرحى اللي عاش يا عينيه
إنتى بكرة اللى غير فية
دانتى إنتى اللى خايفة علية
ياه ياه.. للحنان بشتاق.

شريط "الفرحة" لمحمد منير كان لسان حال رياض في تلك الفترة، فقد أهدانى إياه ثم استعاره مرة أخرى ليشغله في سيارتى التي كان يصمم على أن يقودها بنفسه، كلما ذهبنا بعمتى إلى طبيب أو خرجنا للف مع السماسرة على شقة بوسط المدينة تصلح لتحقيق حلمه في إنشاء شركة للسياحة البيئية. الحلم الذي تبنيته معه وكأنه ابن لم ننجبه بعد. رأيت رياض بطلا متفردًا في ريادة الغرباء المبهورين بالأماكن الطبيعية التي لم يلحق بها التلوث، والتي يرشدهم فيهم إلى نباتاتها الجذابة وحيواناتها البرية الصحراوية، ويرتفع بهم إلى قمم الجبال التي يتسلقونها ورحلات السفارى الصحراوية، ورياضات أعماق الماء والصيد البرى فغبت معه في نشوة الحلم الذي لم يتحقق بعد.

ليلة وهنحلم كل ليلة
ولا ألف وألف ليلة
ونغيّر في الزمان

توقف رياض عن الغناء مع منير ليصدح الشريط بمفرده، حين سألنى

رياض بلا مقدمات: "هو إيه كان المانع اللى ما خلانيش أتشد ليكى من زمان؟!!"

افتعلت عدم فهمى للسؤال، ولأصْدقَك القول خشيت أن أكون قد أخطأت الفهم فعلاً، فآثرت الطريق الذي يحفظ لي ماء وجهى وأجبته بجملة مقتبسة عن "آريا" وهى تجيب مستمعاتها في برنامجها الأسبوعى: "أصل مفيش بيننا انجذاب جسدى. إنت طول عمرك بتحبنى زى بنت.... زى أختك الصغيرة!

– "وانت؟"

– بحبك زى أخويا الكبير!!

يبدو أن الجملة قد استفزت عناد بطل الأزمنة التاريخية حفيد الفراعين لكنه عاود الغناء مع المقطع الأخير من الأغنية في إصرار عاطفى:

تـانـى.. هنعيش الـفـرح تـاني
وَهـــــــروّق لـــك زمـــاني
ونـعـيـش نـفـس الحـنـان

* * *

ضبط الأوتار وشدها، أو تسخين أسطح آلات الإيقاع بالمرور عليها في دوائر براحة اليد، يعتبر أمرًا أساسيًا لتجهيز الآلات لقيامها بالدور المطلوب منها. وقد كان هذا هو ما فعله رياض معى في اليوم الثانى والعشرين من فبراير. انتظارًا لسقوط ضوء الشمس على وجه الفرعون الأحب إلى قلب

رياض لضخامة التماثيل وكثرتها التي نحتها لنفسه في قلب الجبال، وعلى أعمدة المعابد ولامتداد سنوات حكمة وعمره وضخامة عشيرته من الزوجات والنساء.. الملك رمسيس الثاني!

كانت عمتي قد تخلفت عن تلك الرحلة الإضافية حين علمت أن مدينة أبو سمبل تبعد مسافة 280 كيلو مترًا عن أسوان، وأنه سيكون علينا أن نغادر الفندق في منتصف الليل حتى نصل إلى المعبد قبيل الشروق بساعة. كما تضامنت معها تغريد أختي ودادة عطيات بعد أن أدلت بقولها المأثور: "كل نومه وتمطيطة أحسن من فرح طيطا!"

مهجة هي من أتت معنا إضافة إلى "آريا" التي تحمست بشدة لخوض المغامرة، لا أدري إن كان عن ولع حقيقي منها بمشاهدة ظاهرة التعامد، أم لتضع عينا مراقبة عليَّ أنا ورياض الذي صارت المناوشات بينهما على أشدها، حتى أثناء هدأة الليل في الميكروباص الذي حملنا من أسوان إلى أبي سمبل. فقد عارضته في صميم تخصصه، وفي أوج لحظات مجده وهو يمسك بالميكروفون في الأتوبيس الذي يضم سائحين من شتى بلاد الأرض، ويشرح أنَّ ظاهرة تعامد الشمس على وجه رمسيس تحدث مرتين في العام. مرة يوم تتويجه ومرة يوم ميلاده. لم يهدأ لآريا بال حتى أثبتت له بالأدلة والبراهين أن هذه ظاهرة فلكية معروفة لدى الفراعنة، وأنها تحدث عند بداية موسم الزراعة وبداية موسم الحصاد، ولا علاقة لها بالميلاد أو التتويج لأنهما لم يتحددا تاريخيًا أصلاً!.

كأن غليان رياض من إحراج "آريا" له قد تصاعد كأبخرة غاضبة إلى

السماء، أو كتعويذة سحرية جعلت كاحلها يلتوى أثناء صعودنا للهضبة المؤدية لمعبد أبى سمبل، لتظل تتألم في ركن منزو إلى جوار بحيرة ناصر، أثناء سقوط الضوء على وجوه تماثيل رمسيس والإلهين المجاورين له في قدس الأقداس، ثم تتوقف الأشعة عن نشر ضوئها ودفئها على وجه الإله الرابع المجاور لهم لأنه إله الظلام! نور وظلام متداخلان في مشهد حى أمامنا على وجوه الآلهة وما أن يتم الطقس خلال الدقائق العشرين المخصصة له، حتى يفسح رياض لجسدينا المتلاحمين طريقًا للخروج وسط الزحام المتكدس أمام قدس الأقداس، لتستقبلنا الفرق الشعبية بالمزمار والسمسمية والدفوف الضخمة، ولفات التنورة ولنجد أيضا آريا في أوج غضبها من طول فترة تلهينا عنها، معبرة عن استيائها من تلك الطقوس الفولكورية زاعقة النغمات والألوان والتي لا تليق بإعجاز تاريخى، يحتاج إلى التأمل أكثر من التهليل، بعدها ذاب رياض كنقطة تلف مع الدوائر الراقصة شابكًا ذراعه في ذراع مهجة ثم قارعًا على الدف النوبى في فرحة ماجنة!

* * *

أسْكُن بيوت الفرح.. آه ممكن
أسْكن بيوت الحُزن.. لا يمكن
ومستحيل يا حزن راح تسكن
قدّر الزمان يفهمني.. آه يمكن

الغداء بالبيت النّوبي كان آخر محطّة سعيدة في رحلتنا إلى أسوان، بالرغم من أنني كنت مجرد واحدة ضمن الفوج السياحى، إضافة إلى آريا وتغريد ومهجة وعمتى هدى ودادة عطيات فإن الثوب الأسوانى الأبيض

ذا القطان الملون، والذي يتوافق والقفطان الذي يرتديه رياض أشعرني أنني عروس تتطلع إلى عريسها في ليلة حنّتهما!

شكّلني بطعم الأفراح
لوني بلون التفاح
وبطعم المانجة وكمنجة
تعزفلي على الجرح أرتاح .. يمكن

تمر أمام عيني مشاهد كأطياف من حلم جميل، إنني ورياض نعيش بهذا البيت الناصع ذي المثلثات والكفوف الملونة على واجهته، التي تحرس نيل أسوان من هضبتها المرتفعة أغمضت عيني، وارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة، تعارضت بشدّة مع ما كانت تقوله مهجة في محمولها، وتفاعل معها الجميع إلا أنا الغارقة في أحلام يقظتي.

"ونقلتوها مستشفى إيه"؟؟

لأ لازم تروح مصر! لازم تسافر برة!!

كان خبر مرض جدة مهجة لأمها مجرّد تمهيد، لتخفيف وقع خبر وفاتها إليها، لحين وصولها إلى بلدتها الأقصر!

أقنعنا رياض بأن الأمر لا يتطلب تجمهرا، كما أن رصيد اجازاتنا من الإذاعة كان قد نفد، فركبنا الطيارة العائدة إلى القاهرة ورافق رياض مهجة إلى بلدتها، ليكون حائطًا تتساند إليه امرأة صغيرة أخرى أضيفت افتراضيًا إلى أسرتنا.

مشيني على كفوف الراح
نسيني لو حلم وراح
اشمعنى المعنى بيعرفنى
لو باتت في قلوبنا جراح يمكن

* * *

غاب ليعود لحظة البداية الرّابعة أو النهاية الأولى حين تحولت الفيولا إلى طبلة يقرع عليها رياض/ النقرزان في صالة بيتنا الخاوي إلا منى ومنه، والظلام وسيلة للتطمين، والتعبير عن التعاطف مع أهل بلدة بعيدة على حدود الأوطان، بأنّا معكم نشارككم العتمة ولو لدقائق خمس، بناء على رسالة من مجهول على هاتف محمول. لكننا أبدا لم نشاطرهم ظلمتهم نفسها، لأننا استمرينا لدقائق ثلاثين، و لم يكن العزف يليق بأوتار فيولا، لأنها قبلت أن تتحول إلى مجرد جلد حيوان مشدود على طبلة. صحيح أنَّ الإيقاع يضبط اللحن مثلما تقيس دقات القلب كفاءة أداء سائر أعضاء البدن، لكن قرع الطبول ليس دائمًا باعثًا على البهجة والمرح.. فهو في أحيان كثيرة وربما تاريخية، يكون وسيلة لإعلان الحروب. والحواديت مثل احداث التاريخ وكذا الألحان.. متتاليات متكررة تقع على الأسماع وتنفذ إلى الأرواح فتُحدث في كل مرة التأثير نفسه!

* * *

"إيـــروس ولا ثـانـاتـوس؟!!"

10

مروان!! ربما تحتاج الآن إلى كامل تركيزك وكل ما حصلته في كليتك وقدراتك الخارقة، التي بثها فيك مرشدك الروحي ومعلمك، لأنّه سيكون عليك أن تغوص في رأسي إلى مستوى أعمق من الصمت. فأنت على وشك الدخول في سكوت داخل السكوت. مرحلة كنت فيها صامتة وأنا على قيد الكلام!

كما أنني لن أعدك بكثير من الأغنيات المسلية أو المواويل أو دقات الزار، مجرد صوت أوحد مهيمن، هو صوت رياض، إلا أنه لن يكون مملاً كما تتصور. فالحنجرة البشرية هي أكمل الآلات الموسيقية. آلة وترية عجيبة التركيب وغاية في دقة الصنع. خصوصًا إذا كان يقابلها ميكروفون. تلك القطعة الصغيرة التي تكبر الصوت وتجعله يجلجل بدرجات متزايدة قد تصل بالمستمع إلى أن يضع يديه على أذنيه راغبًا في الصراخ. ووسط هذا الضجيج عليك أن تنصت جيدًا إن كنت ترغب في التقاط أصوات أخرى مثل صوت كعب حذائي الرتيب على سلالم العمارة التي بها شركة رياض. أو إيقاع دقات قلبي المتسارعة قلقًا ورعبًا، أو دعاء كروان يحلق في سماء

ليلية، أو خربشات قطة على باب موصد وموائها الجائع لليلة حب مع قط ذكر ربما كان اسمه "داوود"! سنوات ثلاث هي مدة تلك الفترة. بدأت مع مشاهد الإيروس والثاناتوس التي عرفتك عليها ثم انتقلت إلى مرحلة الذبذبات الصوتية التي ترسم أشكالاً هرمية عالية ومنخفضة على مؤشر مذياع أذني.

"لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك! "تقال وتعاد عشرات المرات بأعلى نبرة حية على خلفية مكالمة رياض لي أثناء تأديته للعمرة، والاطمئنان على أنني قد أنهيت إجراءات الشقة التي عثرت له عليها بوسط المدينة؛ ليحقّق فيها حلمه بشركة للسياحة البيئية.

لم يكن لكعبى صوت وصدى في فترة غيابه تلك. فقط حفيف حذائى الكاوتشوك صعودًا وهبوطًا إلى ومن الدور الثانى بالعمارة العتيقة بميدان طلعت حرب، ممزوجة بضرب فرشات النقاشين التي تغمس في دلاء الطلاء ثم تكسو الحوائط، وأزيز عال لشنيور ضخم في يد عامل ودق شواكيش في عوارض خشبية. وقد كانت آخر دقة مسمار سكنت بعدها الأصوات جميعها في ركن اللافتة التي أخفت مقدار شرفتين عريضتين من الزخارف القوطية البديعة مكتوب عليها بالعربية والإنجليزية "إيروس للسياحة" يجاورها مفتاح ضخم للحياة.

احتفظت بنسخة من مفتاح الشقة، وأبقيت نسختين لرياض لنبدأ ما أسميناه بمرحلة "بيت الأشباح"، لكن دعنى قبل ذلك أخبرك أنني خلال

تلك الفترة كنت أستمع إلى أعلى نبرة من حنجرة آريا" وهي توبخني على الاعتذار عن الكثير من نوبتجيات العمل في الإذاعة، ونسيان موعدى مع مديرة المحطة، لكى أحل محل تغريد في برنامجها الذي كانت قد تركته منذ عامين وسافرت لعمل دراستها العليا بإنجلترا. أصبحت بعدها الأمل المتبقى لـ آريا لتخلع عليّ ميكروفونها الذهبى، وتشركنى في برامجها ومجدها الذي لم أصب يومًا لوراثته.

امتزجت صيحات آريا بمصمصات مأثورة من شفتى عمتى الغليظتين، كلما ترامى إلى مسمعها أنني أتهاون في عملي لأؤدي عملاً آخر ألا وهو معاونة رياض في إيقاف شركته على قدميها.

كان هذا هو الإطار الخارجى الذي يظهر الأمر، إلاّ أنني كنت فقط مبهورة بالحلم الشخصي لرياض، وأننى لو وضعت بصمة هنا أو هناك سأكون قد أشبعت رغبة دفينة عندى في جعل أيّ حلم حقيقية، حتى وإن لم يكن لى. ربما يكون اسم "رياض" قد اقترن لا شعوريًا بحلم كلية "رياض الأطفال" وضحكات الصغار وصيحاتهم في المساحات الشاسعة وامتزاجها بزقزقات العصافير النهارية المشمسة. ثم اختلطت هذه الأصوات بأصوات الحيوانات البرية وهي تمرح في الطبيعة البكر التي كان رياض قد وضعها هدفا لمشروعه السياحي الجديد.

* * *

مروان! أظنك تشعر بالضجر من تلك الكلمات الساذجة عن الأحلام الشخصية البسيطة، لأنَّ عقلك يدور في أمر أكثر تشويقًا وإثارة، ألا وهو

"بيت الأشباح" الذي ذكرته لك عرضا.

"بيت الأشباح" هو اسم التدليل لمقر شركة رياض "إيروس للسياحة"! سنمنحه هذا الاسم في اليوم الأول، أو بمعنى أدق في الليلة الأولى التي استخدم فيها كمقر لـ "إيروس" الخاص بنا. غريزة الحب والحياة!

نبرات رياض المدوية في كثير من الأحيان والهادئة في أحيان أخرى كانت تتنوع وتتلون في أداء جملة واحدة، ظل يلح بها لشهر أو أكثر بعد الانتهاء من تجهيز الشقة: "عايز أقعد معاك يوم لوحدنا بالليل في الشركة!"

لم يكن تمنُّعي من قبيل التدلل بل خوفًا من أن ينكشف أمري أمام "آريا"، التي أتخمتني بنوبتجياتها، إضافة إلى نوبتجياتي لتثبت أقدامي على أكثر من خريطة إذاعية.

حركة غير عادية وهمهمات تتصاعد في الدهليز الطويل الذي يضم الإستوديوهات. "سامح عارف" رفيق دراسة تغريد وصديقها الأقرب من بين كل زملاء العمل، قد وضع رأسه اليوم أمام الميكروفون ليستريح قليلاً بعد ساعتين من الكلام على الهواء، إلا أنه لم ينهض حين أضاءت اللمبة الحمراء التي أمامه ليكمل حديثه الضاحك. فقد سكتت مداعباته وجمله الساخرة مرة واحدة وإلى الأبد وفي الاستديو المقابل لي!!

لم أكن بعد وقوع هذا الحدث بحاجة إلى تحمل أزيز موتور سيارة الإذاعة المتداعي منذ سنوات، ممزوجًا برجرجة وهبدات المطبات مع السرعة الجنونية التي يقود بها السائق ليوصلني إلى بيتنا في الزمالك.

رن هاتفى برقم رياض في اللحظة نفسها التي اختنقت فيها بالدموٌع، وهمهمتُ بكلمات مضغومة لم يفسرها، إلا أنه أمرنى بالنزول فورًا لأنه ينتظرنى تحت المبنى.

وجدتنى أسمع صوتى وكأنه لراكبة تاكسى تأمر السائق بوجهتها: "إيروس تورز"!

الممر الذي يقع فيه مدخل العمارة يقابله مطعم وبار، يتردد عليه الكثيرون من معارف وضيوف برامج "آريا" إلا أنني كنت كالمنومة مغناطيسيًا التي تتلقى أوامر من صوت عميق مجهول، بأن أتجاهل أى شخص قد أقابله مصادفة. أو صيحة البواب التي يطلقها من غرفته ببئر السلم حين يسمع وقع أقدام: "مييين؟!!"، أوالسواد الغطيس الذي يلفنا قبل أن يتحسس رياض الحائط الجانبى ليوقد النور السهارى الهزيل، حتى لا يلفت نظر أى من العاملين إلى أن أحدًا بالمكتب، إن مرّ عرضًا من أمام العمارة.

ارتميت على أريكة الصالة، وما إن شرعتُ في الحكى عن "سامح عارف" الذي توفى منذ لحظات، حتى قاطعنى رياض بحكاية تحدث صخبا يغطى على إيقاع حكايتى الهادىء الحزين. الغرفة التي في آخر الدهليز بها أجزاء من مومياء عثر عليها أحد البنائين من معارف رياض بالمنيا وجلبها له ليقررا مصيرها.

شعرت أن الجهد الذي بذله رياض لإخراج الحكاية على الوجه الذي يبتلع حزني، لم يكن لاحتواء شجونى فحسب، بل لغيرة رياض من منح

كامل مشاعرى لرجل آخر، حتى وإن كان ميتًا. تمامًا مثلما أغار أنا من وفائه لزوجة راحلة. وقبل أن أُعاود حزنى قرعنى بحكاية أخرى أفقدتنى ما تبقى من تماسكي بأنّه سمع شائعات أن توافر شقة كهذه في موقع متميز بوسط المدينة وبمثل هذا السعر الزهيد، مبعثه أنّ امرأة قد سددت عدة طعنات لزوجها أثناء نومه أدخلته وهو غارق في دمائه في نومةٍ طويلة أبدية!

انكمشت وتشبثت بذراع رياض، وتشرنقت في حضنه العريض، فتشكلت على هيئات وأنواع عدة للفيولا فيولا الذراع التي يضمها العازف، ثم فيولا الركبة التي تقف كالتشيللو بين ركبتيه، وأخيرًا فيولا الغرام التي يحتضنها بكل ما أوتى من إحساس. ما يهم هو أن العازف كان يوقع بقوسه على أوتار الأشكال الثلاثة سوناتا عذبة من العصر الرومانسى، ستتحول في مرات لاحقة إلى سيمفونية فخمة من عصر الباروك أو لحن خالد من العصر الكلاسيكى. الغريب أن تلك الأوضاع الحالمة والنغمات السيمفونية قد شُبّهت لي، بينما هى في الأصل دقات الدوم والتاك على جلد الطبلة، وقد حدث الالتباس من تشابه وضعيات الفيولا والطبلة على ذراع العازف أو بين ركبتيه.

* * *

"إن لم تفعل ما تحب فأحب ما تفعل" جملة تبثها "آريا" في أذنى قبل كل تسجيل أو برنامج على الهواء "نغمات خالدة" و"موسيقى صنعت حكايات" "رسم الألحان" "أفكار مغلوطة عن الإسلام"

سيناريو يوم وفاة سامح عارف يتكرّر بحوارات مختلفة بعد سماع رياض لبرامجي. يئز المحمول باسمه ورنته، فأحمله خارج الاستديو إلى حمام الدور الأول، حيث تتجول الصراصير الليلية بحرية، وينز خيط ماء رفيع من صنبور تالف، وصوت رياض يعنفني في حماس ورتابة في آن معا بأن صوتي الناعس الذي أديت به لا يصلح سوى في الفراش، وأنّه في كل مرة يستمع إلى البرامج يشعر أنني أضاجع رجال المستمعين!! كلام يقال بتنويعات مختلفة لينتهي بالطلب نفسه في كل مرة بأن أكف عن تقديم برامج المنوعات وأكتفي ببرنامج "أفكار مغلوطة عن الإسلام

أعود إلى موقعي أمام المايك في الاستوديو، فأتخيل رياض قد وضع إصبعه على زر الطوارىء الذي يحجب صوت المذيع، وهو يسعل أو يتنحنح وأشعر أنني أحرك عضلات فمي لأصدر هواء على الهواء.

عازف الإيقاع الماهر هو من يستطيع أن يصدر درجات صوتية متعددة غير الدوم والتاك، بأن يكتم فوهة الطبلة بيده. فوهتي هي فمي المكتوم أمام الإيقاع الصاخب لرياض. سأُسمعك يا مروان بعضًا من حواراتنا على طريقة الدراما السينمائية حين يتلقى البطل مكالمة تليفونية، ويكون علينا استنباط ما يقوله المتكلم على الطرف الآخر من خلال إجابات وردود أفعال البطل. والبطل المتكلم ها هنا هو رياض.

– نتجوز؟! هو دة فعلا حل بس إنت عارفة إن آريا مش بتطيقني وصعب توافق. كمان عمتك ممكن تروح فيها، والأهم إن أنا واخد عهد على نفسي قدام ربنا وسوسن الله يرحمها إني عمري ما هتجوز غيرها!".

– "إنت إيه بالنسبة لي؟ إنت كل حاجة ومعرفش غير إني عايزك جنبى ومعايا طول الوقت.

– "حرام!!!! ده ضعف إنسانى وأنا مستعد أشيل وزرك ووزرى؟ أنا كل يوم بالليل قبل ما انام بقرأ لينا أدعية الرحمة والاستغفار!.

– "لأ طبعًا البرنامج ما عجبنيش، وإحنا مش اتفقنا تسيبيه بعد ما تخلص الدورة الإذاعية دي؟!"

"برضه ما لبستيش الفستان الأسود اللى بحبه؟ يعنى إيه كنت في الإذاعة طول النهار؟ هتلبسيه بكرة؟! خلاص ما بقاش ليها لزمة ما دام طلبتها منك!!

– "يعنى إيه خفتى أما لقيتى شمعة مولعة قدام باب بيتكو وإنتى راجعة م الإذاعة بعد نص الليل؟ كان لازم تفهمى إن انا اللى حاططها احتفالا بعيد حبنا الثانى وأمال يعنى مفاجأة؟ وكان لازم تتصلى بى في ساعتها، لأنك كان لازم تربطي بين وجود الشمعة وتاريخ النهاردة!

– بتقيسي بلوزة في محل وفاضل على ميعادنا ربع ساعة؟ خلاص إقفلى دلوقتى وأبقى أشوفك أما اروق!!

– قافلة موبايلك علشان تعبانة؟ إعمليه Silent علشان تعرفي إني طلبتك عشر مرات!!

– الموظفة الجديدة؟ قصدك وردة؟ لأ دى بنت غلبانة بساعدها تحقق طموحها في إنها تبقى مرشدة!

– ماردتش على مكالماتك ليه؟ أصل كان عندى Meeting! أصلى مسافر وادى حيتان! رايح "دهب"! أصلى بوّصل وردة دار السلام علشان الوقت متأخر!

– أصلى لازم أقفل وهكلمك بعدين!!!"

كانت هذه هى رؤوس المواضيع فقط التي تقال على المحمول. أما الديباجة فقد كانت تتم في سيارة رياض أو سيارتى التي يقودها بنفسه، وكان يشهد على القرع والدق والخبط كورنيش نيل القاهرة، من أول طريق القناطر حتى أول طريق حلوان، والضفة الأخرى حيث نيل الزمالك والروضة وكوبرى الجامعة. وحين يهدأ الإيقاع قليلاً، يكون الحل في "بيت الأشباح"، حين يخرج صوتى المضغوم مثل راكبة تاكسى مجهدة توجه السائق قائلة "إيروس" حيث أجاهد في كل مرة في النظر إلى أسفل، مدعية إصلاح قُصتى كلما انفتح باب المطعم المجاور لمدخل العمارة، وأحاول إخماد صوت دقات قلبى وصعود السلم على أطراف أصابعى حتى لا يوقظ صدى كعبى صيحة البواب المدوية "مييين!!!" وحين يردد الكروان دعواته الليلية بأن "الملك لك لك لك لك والتي كانت تطربنى في زمن سابق"، تحضرنى المقولة التشاؤمية بأن مكروهًا سيحدث لو سمعت دعاء الكروان أكثر من سبع مرات، فانخرط سريًا في العد حتى تبدأ قطة السلم في خربشاتها، واحتكاكاتها بالباب، وهى تنادى قطها "داووود"!

* * *

الأداء الدرامى نفسه ستقوم به ريتا، وهى تتلقى مكالمات تغريد أختى من انجلترا، والتي سأستشف من ردود أفعالها ماذا قالت "ريدا"!

– "هتتجوزي" دكتور بيت الطالبات؟ مصرى وأكبر منك بخمستاشر سنة!! خمستاشر سنة يا ريدا!!!!!

– اتحجبتي؟!! يعنى إيه خمار؟ يعنى إيه إسدال؟ زى الجادور؟ إنتى حُرة. اتفلقى!!

* * *

فوهتى المكتومة بالأساس ما كانت لتجد شيئًا تقوله أمام ثورات "آريا"، وقلة حيلتها أمام مكالمات "تغريد" الإخبارية والخالية من المشاعر، والتي صارت تتباعد شيئًا فشيئًا. أما الميكروفون الذي كنت أكره صوتى المنساب عبره، فقد صار ملاذى لافراغ طاقتى الصوتية المنحبسة كلما كنت أتخيله سلاحا أبارز به ميكروفونا من نوع آخر، يكون دائمًا في مقدمة أتوبيس فخم ويمسك به مرشد للسياحة.

* * *

Counterpoint معناها "ترديف"! كلمة غريبة أليس كذلك؟ إنه مصطلح موسيقى، وهو أن يدخل لحن على لحن آخر، ويقول الجملة الموسيقية نفسها! فمثلما اخترقت "وردة" لحنى مع رياض، ستدخل أيضًا جملة موسيقية طويلة يعزفها حسين ليتشتت النغم الأصلى وتهيمن الفروع!

يُقال "ستنتصرون بأخطاء أعدائكم" الخطأ الذي وقع فيه رياض كان "وردة"، وهو أيضًا ما ساعدنى على النجاة بنفسي من دوامته السريعة، التي كانت تبتلعنى لأسفل، فطبيعتى الساكتة كانت تجعلنى دوما أنتظر حلولا خارجية لإنهاء عذاباتى، حتى وإن كانت أحلامًا طفولية تراودنى في سن كبيرة، مثل أن يحترق الاستديو كى أتحرر من عملى، أو حين تمنيت أن تقوم حرب تهدم المدرسة حتى أتخلص من جلستى إلى جوار أيمن ذي الرائحة الكريهة!

حصل رياض على تصريح خاص بدخول غرفة الدفن بالهرم الأكبر، واصطحاب أى عدد من الأفراد معه. كالعادة كانت "آريا" في مقدمة الطابور، ثم أنا ومهجة وموظفى الشركة و"وردة"!

ولع رياض بالظلام والأمكنة التي تحوم فيها أرواح الموتى، جعله يروّج بكل ما أوتى من مهارة لرحلة صعود الهرم من الداخل، فوق الصقالات الرفيعة الموصلة إلى غرفة دفن الملك خوفو، برؤوس منكسة وظهور محنية.

كانت للمغامرة لذة خاصة أثناء الصعود والوقوف لدقائق مع حفنة من البشر في المكان نفسه، الذي ضم جثمان الملك الأسطورة وعلى الرغم أن الهبوط يكون دائمًا أسرع وأيسر، فإن تحسس خطواتك المرتعشة على الصقالات، والنظر إلى الناحية اليسرى حيث الفراغ السحيق قد سحب من صدرى كل الهواء، فأغمضت عينى وارتكنت بجسدى إلى الحائط الأيمن إلى أن استشعرت من خلف جفنى المطبق أول بصيص نور، وتشممت

نسمة هواء. سحبت الشهيق العميق ولفظته زفيرًا يسبح بالحمد على نعمة النور والحياة. التفتُ باحثة عن رياض فلم تقع عيناي سوى على أصابع النقرزان تدق بخفة ورقة على ظهر وردة، بحجة تخليصها من تكدس الأجساد، مثلما حدث معي تماما يوم تعامد الشمس على وجه رمسيس في أبى سمبل.

خطأ العازف الماهر هو ألاَّ يدقق في اختيار النغمة، وأن يفقد شعوره المرهف وحكمه الصائب، نتيجة غروره أو علمه الزائف. وفي هذه الحالة تفسد الموسيقى! لحظة الخروج من الهرم الأكبر كانت لحظة الخلاص من العتمة، وصعود وهبوط صقالات خشبية مرهقة تبعث ذكرى سلالم رخامية في عمارة عتيقة بممر ضيق، يجاورها مدخل مطعم وبار في وسط المدينة، ولحظات مسروقة على ضوء لمبة سهّاري وخربشات ومواء خلف الباب الموصد بإحكام.

البازارات المجاورة للأهرامات كانت تعرض أحجامًا مختلفة للقط الفرعونى، ومفتاح النيل.. مفتاح الحياة شعار شركة "إيروس تذكرت المفتاح المعدنى الذي احتفظت به كذكرى لغريزة الحياة. عبثت في حقيبتي وحللته من سلسلة مفاتيحى بأصابع أكثر رشاقة من أصابع رياض. تلكأت بضع خطوات وتركته ينفلت في تلقائية ليغوص في سكون في رمال الصحراء الممتدة تحت سفح الأهرام!

* * *

مروان! أتذكر ليلة عيد الموسيقى في محكى القلعة، حين كنت أقف إلى

جوارك في انتظار صعود "سعاد ماسى إلى خشبة المسرح وأجول بعينى بحثا عن رياض، بينما كانت تدور مهجة في رقصة صاخبة مع الفرقة النوبية؟

كنت أشعر أنّ الحدث سيستهوى رياض ليصطحب مجموعة من السائحين، لا لكي يعرفهم على نبض الحياة وزهو الألوان في الرقص الشعبى، بل لأن سحر هذا المكان كمقر لمذبحة قديمة سيجعله يضمه إلى أمكنته السياحية المفضلة على خريطة ما يسمى بالـ Dark Tourism أو بسياحة الظلمة، التي تحوى متاحف بها حطام وأشلاء حوادث تاريخية مثل سفينة تيتانيك، والعربة التي انقلبت بها الأميرة "ديانا" ومسدسات آل كابونى بعد أن تخلى عن حلمنا المشترك بسياحة الطبيعة التي لم تنفض بكارتها بطيورها البرية وأسماكها الآمنة وبقايا غاباتها المتحجرة.

فى تلك الليلة أيضا كانت قد مرت أكثر من ثلاث سنوات على بداية علاقتى برياض، وأكثر من أربع سنوات على غياب تغريد أختى، أسفرا عن شبه اختفائها من حياتنا وطفلتين وتخليها عن حلم البعثة لتضحى بالوقت والمال لرجلها، الذي أدخل في رأسها أن الملائكة لن تشهد أن الله قد غفر لها إن واصلت حياة اللهو والغفلة التي تبثها آريا عبر الموجات القصيرة والمتوسطة والـ FM، إلى أن بدأت في الظهور التدريجى على شاشة الكمبيوتر الخاصة بى وأخبرتنى بأنها قد عثرت لك على أثر في الفيس بووك، وبدأت علاقتنا الافتراضية الإلكترونية ثم كانت ليلة عيد الموسيقى. أنت وأنا والألحان. بيانو وفيولا من لحم ودم في ليلة عامرة بالرقص والأغنيات. لكنك همست في أذنى بأنك تعتريك فرحة كبرى

لأنك حاسس "إننا في فيلم"! ثم تلاشيت بعدها لتقضى ما تبقى من أجازتك السنوية في بيت خالك الصيفى على شاطىء ما.

تمنيتك "ترديفا" في هذه الفترة. لحن فرعى جميل يدخل على اللحن الأصلى الحزين. أصابع البيانو الرقيقة والشقية التي ستحول شجن الفيولا إلى مقطوعة مجرية راقصة أو فالس سريع، أو أغنية متدفقة على إيقاع الصالصا، لكنك تطير بعدها وتتلاشى مثل روح، بنفس سرعة ظهورك، إلى ولاياتك المتحدة!

* * *

المراحل الانتقالية في حياتنا هى المنافذ التي يتسلل منها صيادو الفرص إلى أعماقنا، وفترات تحولى تساوى دائمًا مدة وقوعى في مقام الرست، الذي أشتق منه رنين الأسى والحزن والشجن.

اللحن الفرعى الذي سيحدث نقله الآن سيكون "حسين" سيأخذ بيدى حتى ينقلنى من حال إلى الحال نفسه، تمامًا مثل الـ "روندو ذلك القالب الموسيقى الذي يعود بك إلى الجملة اللحنية الأولى في شكل دائرى. سيعيدنى معه إلى أغنيات "منير وبيوت النوبة لكن بتنويعات جديدة. بل سنخوض معا أنا وهو ومهجة في الماضى البعيد كجزء لا يتجزأ من "الليلة الكبيرة"

11

لما حكم ربنا بالبعاد وبعدتوا

ليه ما كتبتليش جواب وبعتّوا؟

والصّبر منى فرغ وطولت ليّام

إياك تكون عجبتكوا بلاد النّاس وقعدتوا

مروان! ألم أقل لك إننى سأعود إلى نقطة البداية؟ ها هى المواويل بدأت تعبث برأسى ثانية! أتعرف من السبب؟ أنت! نعم أنت!! لا تزهُ بنفسك لأننى تصوّرتك بيانو قادر على عزف أجمل النغمات وأكمل الألحان. أتعرف ماذا يقول البعض عنك؟ إنك آلة سخيفة بجدارة. لا تصلح سوى أن تكون قطعة موبيليا ثقيلة بغرفة جلوس للتباهي الاجتماعي، أو أداة لتعذيب الصغار بحجة تدريبهم على مهارات العزف وترقية النفوس! انقلبت عليك؟ نعم لأنك لم تعد الصغير المنزوي بالبيانو الخشبى على بسطة السلم، أو الولد الكسير الذي يربت على ظهور القطط ويقلد نونواتها. أنت الآن ومنذ حين، صرت مداويا للنفوس تمتلك حنجرة

تمكنك من التنقل بين الطبقات من تينور حاد إلى باص غليظ، لتعتلى خشبة مسرح أوبرالى وتصدح مثل "بافاروتى" أو "بوتشيللى أما أنت فقد اخترت أن تتوقف معى عند أغنيات السلم "بريللا بريللا" و"رايح أجيب الديب من ديله" و"طار في الهوا شاشى"، حين غادرت ثانية إلى موطنك الجديد البعيد، واستأنفت رسائلك الإلكترونية الغاصة في أصداء من الماضى، تتخللها مشاهد من أفلام ومسرحيات الأبيض والأسود، تزورك كل ليلة أثناء فترة نومك، وتقول إننى كنت شريكتك في التفرج عليها في أحلام ذات دلالات رمزية واضحة، تؤكد تثبتك عند مرحلة انتهيت أنا منها وتجاوزتها منذ زمن بعيد.

سأتركك الآن لتلهو في دوائرك الصغيرة، لأن الحديث الآتى لا يصلح سوى للكبار. هل تعرفهم؟ الكبار الذين اشتهت "الصغيرة على الحب" أن تذهب قبل الأوان إلى عالمهم وساعدها على تحقيق أمنيتها "عم حُزُمبل لتتوه وسط الدوائر المغلقة التي أحاطوها بها، وهم يغنون "دوخينى يا لمونة دوخينى"!

تثاءب أيها البيانو الأبانوسي ثم اسحب مفرشك المخملى العتيق، وانعم بأحلامك ولا تنس أن تتذكر تفاصيلها حتى تقصّها علىّ غدا في بريد الكترونى يسلى صباحنا.

يـا الـلّـى رمـاك الـهـوى خـلّـيـك بعيد حبّة
قالوا الهوى له دوا، قلت منين الدوا وأنا أروح
رحت لطبيب الغرام لقيت الطبيب مجروح
قال لى: لو لقيت الدوا هات لي معاك .. حبة!

* * *

حسين! حسيين!!!

ها أنا قد أبعدت مروان لأحدثك وحدك، بعكس المرات الأولى التي تلاقينا بها، حين كنت غير قادرة على إقصاء رياض عن رأسي بنقراته الحانية القاسية، وكل القرعات والدقات والنغمات المصاحبة. لكن دعنا لا ننسى أن رياض هو الذي سلمنى إليك لأدخل في مرحلة "الروندو"، وكأننى مذهب أغنية يعاد بين كل مقطع، ليبتهج به المستمع وقد يصاحبه بالغناء لأنه يألفه ويحفظة من كثرة تكراره، متجاهلاً أن هذا المذهب ربما يكون قد أجهده أو أعياه الدوران. أتعرف من أين سأبدأ؟ لا يهم مادمنا في دائرة فأي نقطة هى بداية ونهاية. سأبدأ بالورقة التي سكبت عليها كل ما لم أقدر على قوله كالعادة، بعد أن قمت أنت بإنهاء علاقتنا في المرة الأولى، فتقابل فكى العلوى مع السفلى مثل عاشق ومعشوق وانحبس الكلام!

حسين! سأقرأ عليك المكتوب في الورقة بحرية، لأننى أثق أنك لن تستطيع النفاد إلى رأسى لتسمعه. ها هى الحروف تتضح أكثر وأكثر حتى أسمعها جليًا بصوتى. يقول المكتوب آنذاك والمسموع الآن:

"اشتقتك جدًا يا حسين . كم أتمنى لو تحتوينى في حُضنك مثل ذى قبل، وأن تجلسنى على ركبتيك مثل طفلة مشاغبة وتغمرنى بالقبلات الصغيرة كأنثى مكتملة، وأنت تسحرنى بهمسك المتواصل: "أحبك"! أو حشنى صوتك على الهاتف وحروف اسمك المتراصة على شاشاته: (حسين يتصل) أو (رسالة من حسين) لأفتح صندوق الرسائل وأجد كلماتك:

– "ماذا يحدث يا حبيبتى لو أننا رقصنا معا فوق أعلى سماء وكتبنا: هنا تولد الحياة؟".

– أنا غارق يا فيولا في نعيم نغماتك وسابح في بحر أوتارك الذي لا أول له ولا نهاية"

– "أنا حسين الذي يحب "لولا" ويعبد جمالها ويسجد أمام عينيها كل طلعة شمس في سرور!"

ليتني حتى أسمع ولو لزمتك الساخرة، التي تبدأ بها حوارك مازحا وتستخدمها بدلاً من كلمة "آلو" وعوضا عن كلمة أحبك حين تكون محاطًا بآخرين: لولا المهبولة؟ حتى تتخذ تلك المفردة الطفولية دلالات شتى تتشكل في رأسي على هيئة دفء الضمة، وحميمية تآلف كيمياء إنسانية تنتج هارمونية سماوية!

ما زلت ألف في دوائر الذكريات. لا أستطيع مغالبة النغمات التي تصاحب نبضاتي ثم تعلو تدريجيًا لتملأ رأسي بصوتك، وصدى نبراتك الخافتة المصاحبة لها في أعمق أعماق سمعي، على الرغم من أنها كانت مكتوبة على هيئة قصاصة شعرية تصف جلستنا الصامتة كمتفرجين في عرض للباليه..

(ولم أستطع أن أُدرب روحي، لكي تتأمل هذا الجمال وتسحبنا مثل أطفال مدرسة أولية | نشاهد عرضًا | وقصة فاتنة تتسامق حبا | ستُغرق أرواحنا في زوايا من الارتباك| فأصمت بعضًا من الوقت| لا أستطيع التنفس.. لا أستطيع التلفت| لا أستطيع الكلام.. ولا أستطيع السكوت!)[2] *

أما زلت تفكر في؟ هل تحن إلى أى من أيامنا؟ هل يعقل أن تكون

قد ألغيتنى من ذاكرتك؟ لقد خلف كثرة بكائى الليلة بصمة شجن على أوتارى، تخنق نبراتى بكآبة لا تليق بمذيعة "هواء" تفتتح نهار آلاف المستمعين بفترة صباحية، المرجو منها بث حالة من الانبساط والتفاؤل!

أعيانى النحيب والانتظار! هل عشقتك بحق أم اعتدتك أم كنت فقط أفتقد "حالة"؟! حالة انتماء أنثى إلى رجل، وإن كلفها ذلك التضحية بانتمائها لبقية البشر! أود أن أدلى لك باعتراف. بل اثنين لقد استخدمتك في البداية كـ"ترديف"، ذلك اللحن الفرعى إياه لتلهينى عن ذكرى رياض، ولو كان مروان قد بذل جهدًا أكثر لاستمالتي، لتركتك على الفور حتى ونحن في منتصف اللحن ليس خسة منى، بل ردًا على كذب ابتدعته لما أوهمتنى بحقيقة غير حقيقتك. ظننتك في البداية جيتارا ثم ساكسفونًا ثم وجدتك أخيرا مجرد فحيح!

كثيرًا ما سألت الله خلاصا منك بلا ألم، ويبدو أن السماء كانت في حالة كرم وجادت علىّ بقبول الدعاء، فصرت تمنحنى نشازًا تلو الآخر فالنشاز كما أراه هو شرخ لجمال اللحن، وهو ما نتذكره مدى الحياة للعازف الذي ارتكبه لأنه خدش وجداننا. بدا الأمر كأنك أنت الذي تركت خشبة المسرح، وأنا أجلس بين الجمهور في حالة دهشة، على الرغم من تململى أثناء العرض. هذا لا يمنع أنني كنت في لحظات أشعر بالتماهى مع النغمات وأن اللحن قد وضع خصيصا ليكون مقطوعة حالمة للجيتار والفيولا أو هذا ما صوّرته لنفسى ولم أتخيل أن تنتهى السوناتا دون العودة إلى جملة البداية. الروندو لأرتكب حماقتى الثانية. إعادتك إلى خشبة مسرحنا لتكمل ما بدأت. لذا كان لزاما علىّ أن أتحمل الفحيح

والنشاز والانصراف الثاني، والأخير وسط دهشة الجمهور نفسه!!

فيولا

* * *

سُلم عال في بهو فندق خمس نجوم. تظهر على استحياء عروس في ليلة زفافها، تتأبط ذراع أبيها، يحدوها على الجانبين دستة من عازفى الكمنجات. تمتلىء بلحن "أنا قلبي دليلى وتصفيق الحاضرين وشهقات إعجاب السائحين وزغاريد لا تحدث هارموني مع اللحن، لكنها تضيف لمسة فولكلورية تمنح الإيحاء المطلوب لطبيعة الحدث. تلمح عريسها المنتظر في شوق كنقطة صغيرة يتطلع إليها وسط الجموع في البهو. تنزل في تؤدة مثل ملكة – يسلمها والدها إلى فتى أحلامها. يضع قُبلة صغيرة على كفها ويظلا يدوران معا في فالس حالم!

مشهد اشتهيته لنفسى وطال التمنّي سبعة وثلاثين عامًا.

سلم بهو دار الأوبرا مطابق تماما للتصور الذي كان في مخيلتى، وكان حسين النقطة المتطلعة إليّ وأنا أنزله درجة درجة، ليتلقفنى مثل طفلة يقذفونها إلى أعلى فتهوى بين ذراعى أبيها الذي يداعبها. الأب الذي رمى بى إلى الفراغ لأعلى كان "رياض"، والأيدى التي تلتقفنى كانت لـ حسين. روندو لامتناه بدأ حين رشحنى رياض لعمل الترجمة التحريرية لجلسات مؤتمر تنشيط السياحة البيئية. تحويل المنطوق بلغة ما إلى صامت مكتوب بلغة أخرى. كان حسين مخرج عرض الختام الذي يتطلع إلى رياض الواقف أعلى السلم ليسلم عليه بحرارة، وتتحرك عيناه

بسرعة باتجاهي وباتجاه رياض. وقع هذا الحدث بعد أن تركت مفتاح شقة "إيروس يسقط في رمال صحراء الأهرامات، ليغوص في الحبات الناعمة مثل عمل مدفون في بحر بلا قرار. كان لابد أن أفك العمل الذي ربطته بنفسي وأتخلص من قبضة رياض على قلبي. أن أرتد إلى مراحل بعيدة من طفولتي، وأتذكر ما كانت تفعله سميحة السودانية. أن أستيعد مشاهد مما وقر في أذهان نساء الزار لتتخلصن من عذاباتهن اللاتي تسبب فيها رجال. فيلجأن إلى سيد من الأسياد.. رجل أيضا.. لكنه افتراضي.. يُهيمن ويسيطر عليهن من عالم آخر ما ورائي. فيقدمن له القرابين والذبائح ليتوحدن معه، وبمصاحبته يتغلبن على أوجاع الروح التي سببها الرجل الأوّل.. الحقيقي.

كنت على وعى تام وأنا ألعب لعبة التوحد بالمعتدى. فـ"رياض" كان الحقيقي المعذّب، وحسين كان الافتراضي المخلّص. لكنني مثلهن تمامًا، ما كان يمكن أن أتغلب على الوجع سوى بالمواظبة على الحضرة، والولاء المتواصل مع السيد الجديد حتى وإن كان تقديم القرابين والدوران في حلقة الزار، سيسبب دوارا يعقبه سقوط ودخول في حالة تشبه الغيبوبة!

* * *

بدلاً من أن أهوى في الفراغ الذي تركنى فيه رياض، رميت بنفسي إلى الأستديوهات المغلقة لأحتمى بجدرانها العازلة للصوت، وأسكب كل ما كبحه رياض على هيئة حوارات وأقوال مأثورة، في برامج ثلاثة وفترات مفتوحة تنساب ناعمة أو قوية أو منغمة عبر الأثير..

توالت اعتذارات "آريا" عن برامجها وفتراتها المفتوحة، وكلما علا نفير عربة الإذاعة في شارعنا الهادىء لتنزل "آريا"، أضطر أن أحل محلها خلف السّائق ليمتزج في أذنى طنين حشرجة الموتور الممتزجة بأغنية لأم كلثوم، يخترقها تشويش تمثيلية من محطة أخرى على مذياع العربة فأشكر الله أن ماسبيرو لا يبعد كثيرًا عن الزمالك!!

إن لم تفعل ما تُحب، افعل شيئًا آخر، أو ارحل. هذا منطق من يتحلّون بجرأة تنقصني، لذا وجب عليّ الالتزام بالمقولة الأصلية فاضطررت أن أُحبَّ ما أفعل. قررت أن أرى المكان بعيني "آريا" وتغريد أختي. أن أجد في تكدس موظفي المبنى الأربعين ألف حميميةً ودفئًا، وفي إعلانات المصايف والوفيات المتناثرة على جميع الحوائط تآلفا وأخوّة، وفي طوابير المصاعد الطويلة فرصة للتعارف، وفي ممازحة الموظفات مع زملائهن الرجال خلاصا من روتين منزلي ودفعة للاستمرار، وفي مجاميع الكومبارس المتجهة بملابس تاريخية نحو استديو عشرة، انتقال لا إرادي إلى زمن آخر.. أيوبي أو فرعوني! وفي المئات من أصحاب شكاوى برامج التوك شو المتزاحمين خارج المبنى وسيلة إلى شكر الله على ما آتاني من نعم.

بدأت أدخل حمّام الدور الأول للأسباب العادية لارتياد الحمامات، وليس فقط للرد على مكالمات مطوّلة من رياض، يقرعني فيها بحماس ينسكب سخونة على أذني فأتخيله أصوات سياط أو بقبقة فقاقيع مياه تغلي أثناء تغطيس رأسي في إناء في معتقل للتعذيب وأنا أضع هاتفي

المحمول على أذنى وأحسد الصرصور المتجول بحرية في أنحاء المكان!

خرجت للمرة الأولى من قوقعة الأستديو إلى الاستراحة، ومازحت مذيعى المحطات الأخرى الذين لم أبذل جهدا يذكر في مصادقتهم لأنني أبنة "آريا" وأخت" ريدا" وجدتُ حلاوة غامضة في تناول عشاء ملفوف بورق الجرائد مع مهندسي الصوت، ثم احتساء شاي جماعي من البوفيه.

وحين تعرف على صوتى أحد الضيوف المكفوفين بإذاعة الكبار، شعرت أن الفيولينة قد عادت أخيرًا إلى موقعها الأصلى في مقدمة الأوركسترا، حيث توجد الطبول دائمًا في الخلف.

صار رياض في خلفية رأسى، حتّى بالرغم من تردّده الدائم على البيت بحجة الاطمئنان على صحة عمّتى الآخذة في التدهور، وكان الفضل في إرجاعه إلى الوراء يعود له هو نفسه حين قدمنى لحسين في المؤتمر لأول مرة، فتعرفت عليه حين قابلته للمرة الثانية في دار الأوبرا.

كنت أنزل السلم هذه المرة وأنا في حالة نشوة بصحبة مهجة وحفنة من الزميلات بعد انتهاء عرض لليلة الكبيرة. كان حسين النقطة المتطلعة إليّ من أسفل السلم والمتعلقة بمشاعر امرأة تسعى إلى نسيان "قصة" وتحن للانتماء إلى "حالة"

انفصلت عن مهجة التي دخلت في حوار جانبى مع شخص غريب، كان يجلس بجوارنا من ناحيتها أثناء العرض، لأدخل أنا في دائرتى

الحلزونية مع حسين، بينما كان يصدح تسجيل "الليلة الكبيرة" في الخلفية. وحين ظهر صوت الأم الملتاعة في آخر الأوبريت، وهى تسأل أولاد الحلال عن "البنت اللى تايهة طول كده" كان حسين يُناولني دعوة المسرحية الجديدة التي يُخرجها، بينما مهجة ترسم بسبابتها دوائر في الهواء في حديثها الطويل مع ذلك الغريب الذي قابلته للتو!

* * *

كانت مهجة قد أنهت دراستها للإعلام، وآن الآوان لتحقق الحلم. أوليتُها عناية خاصة دون المتدربات الأخريات، وصرت أضع كل ما ادخرته من أفكار في خزانتها. قمت بعمل تصور لبرنامج تقدمه في الدورة الإذاعية المقبلة، وعكفنا على إعداد الحلقة الـ Pilot لكى نحصل على الموافقة. احترنا بين اسمين "كونشيرتو بلدى" أو "تانجو وموال" لتقدم فيه مزيجًا من الموسيقى العالمية والموسيقى الشعبية المصرية. وبالمصادفة كان هذا هو المحور الرئيسى الذي تدور حوله مسرحيات حسين. تقديم التراجيديا العالمية في قالب غنائيّ شعبيّ!

ازدادت "آريا" غرابة في الأطوار في تلك الفترة، فقد عاودت مناوشاتها مع عمتي هدى، خصوصا بعد أن صارت تمكث أوقاتا طويلة بالمنزل، تقوم فيها بإجراء مكالمات بصوت خفيض من غرفتها، وتنهيها فور دخول أحد عليها. هل يمكن أن تكون في سنها هذه على علاقة برجل ما؟ ربما واحد من مستمعيها الذين أسكرهم صوتها وموضوعاتها الجريئة فلم يعبأ بالسؤال عن عمرها!

شعرت أيضا أنها تغار من رعايتى لـ "مهجة" وصرّحَت أمامها بجرأتها المعتادة بأننى إن كنت لأبذل جهدا لإعداد برنامج كهذا، فليكن من نصيبى أنا، لأن صوت مهجة لا يصلح سوى لمطربة كورس في برامج الأطفال. فالصوت الجيد في نظرها إما أن يكون ذا بحة مغوية، مثل بنات أمريكا اللاتينية والزنجيات، أو عريضا ناعما كأوتار الفيولا أو مرنًا متمكنًا كتغريد البلابل!

كنت أصبو إلى أن أعوض مهجة عن بعض مما سلبه منها الزمن. أن أحقق لها الحلم كبديل عن فقدان الأم، كما وجدت متعة سابقة في تحقيق حلم رياض!

لم تفهم آريا أنني بتلبية آمال الآخرين، كنت أعوض نفسى عن حلمى المفتقد، بينما كانت ترى أنني أقحم نفسي في قضايا الآخرين الخاسرة!

الجزء الأكثر تأثيرًا في برنامج "كونشيرو بلدى" لم يكن قد تم تجهيزه بعد تيتر المقدمة والنهاية وفواصل الفقرات. قلبنا مكتبة الإذاعة بحثا عن تسجيلات بعينها من مؤلفات جمال عبد الرحيم: "مقدمة وروندو بلدى" و"فانتازيا على لحن شعبى للفيولينا والأوركسترا!

تذكرت عروض حسين، وأنه ربما تكون لديه مكتبة موسيقية تحتوى على هجين من الموسيقات العالمية والشعبية المصرية فاتصلت به.

"طلبك عندى!" قالها في ثقة. وأضاف أنه سيحضر بنفسه الآن لأنه يسكن بالقرب جدًا منا. وبالفعل كان على ناصية الشارع بعد دقائق

خمس. نزلت لآخذ منه الأسطوانات فقال: "اركبى!"

تحركت بنا السيارة في هدوء، ومن أول فتحة شمال استدار، وعاد في شارع 26 يوليو. كان ليل القاهرة قد انتصف. مررنا من أمام الماريوت فقلت له تصور أنني لم أدخله قط رغم أنه مجاور لمنزلنا! صعدنا الكوبرى ثم أطفأ المحرك وترك السيارة تنزلق بنا في هدوء على المنزَل مثل طفلين يلهوان على زحليقة.

قلت له "أعمل هنا"! نظر إلى ماسبيرو في صمت، وأدار راديو السيارة على البرنامج الأوروبى. كان "أنطونيو بانديراس يغنى أغنية فيلم "ديسبيرادو" العازف المغامر الذي يخفى الأسلحة في جراب الجيتار جعلتها موسيقى الرنة الخاصة به على المحمول وكلما سمعت الأوتار تهتز في عنفٍ جميل، تخيلته يمسك بالجيتار ويغني لي.

كان النيل على جانبينا يشهد على مشوارنا شبه الصامت إلاّ من بضع كلمات وأغنية "ديسبيرادو" نتجه يمينا ولا يزال النيل على يميننا فوق كوبرى قصر النيل. دار الأوبرا في مواجهتنا. قال: "هنا تقابلنا للمرة الثانية" انحرف يمينا وعاد إلى الزمالك وعند ناصية شارعنا توقف لنصف دقيقة قضيناها في صمت انطلق بعدها ثانية. ومن أول فتحة شمال استدار عائدا في شارع 26 يوليو. وجدتنى أقول له مرة أخرى: "تصور أنني لم أدخل الماريوت أبدًا رغم اننا نسكن بجواره؟" وأمام مبنى ماسبيرو قلت له "هنا أعمل وفي مواجهة دار الأوبرا قال "هنا تقابلنا للمرة الثانية!"

وحين وصلنا إلى ناصية شارعنا ضحكت بنظرة صامتة أن يكفى

مرتين. صعدت إلى بيتنا شبه دائخة وممتلئة بنسمات الليل، ولما وضعت رأسي على الوسادة بنصف وعي تذكرت نساء الزار والدقات العنيفة والدوران الذي كان يسبق سقوطهن. وعلى الدقات امتلأت أذني بـ"فانتازيا على لحن شعبي لجمال عبد الرحيم، فتذكرت أننا حتى لم نأت بسيرة الأسطوانات التي من أجلها نزلت ولففت بعد منتصف الليل في هذا الـ "روندو" بشوارع القاهرة، إلاّ أنني غصت في قرار عميق على صوت رنات أوتار جيتار عفية يداعبها مغامر وسيم!

* * *

صـوتـــك..
وسـط الألـوف أنـا بعرفه
مليـون كمنجـة بيعزفـوا

أليست مصادفة غريبة أن يجعل حسين "محمد منير ينوب عنه في التعبير عن مشاعره، حينما يكون برفقتي وبالأغنيات نفسها التي اختارها رياض للغرض نفسه من قبل؟

كنت أتلقى الكلمات نفسها من كاسيت سيارة حسين، استكمالاً لحالة " الروندو" التي دخلتها بإرادتي تقريبًا، إلا أنني كنت أجلس إلى جواره وكأنني في حلم متكرر أعرف نهايته مسبقًا، ونحن نطوف شوارع القاهرة والزمالك ووسط المدينة والعتبة، ثم أتساءل إن كنت سأتحمل عواقب اللعبة إن وصلت للنهاية غير السارة، وأنا أتفرج على نفسي بينما أنا جالسة في الصف الأول دائمًا بجوار حسين في قاعات "الهناجر" أو

الـ "تاون هاوس" أو "الطليعة" وأتمتع بامتيازات السيدة الأولى التي أعرف انها فقط حالة مؤقتة، ومع ذلك صرت أتلذذ بتكرارها مثل المقامر الذي يدمن لعبة الروليت، ويقف مترقبا الكرة الدوارة التي ستقرر مصيره في صالة القمار!

* * *

تلهت مهجة في حدوتتها الجديدة مع ذلك الذي تنحّى بها جانبا في الأوبرا يوم حفل "الليلة الكبيرة"، ودخلت معه في روندو يعود بنا إلى رياض أو بمعنى أدق إلى طبيعة عمله. فقد أقنعها "الغريب" بالعمل معه كمندوبة للعلاقات العامة في شركة سياحة يديرها بوسط المدينة، وانشغلت كلتانا عن استكمال الحلقة الـ Pilot التي كانت يجب أن تقدم للإدارة بعد غد.

اتصلت بحسين ليحضر لي الاسطوانات لكنه كان يتكلم بالكاد، وتبينت من بين حروفه المبهمة وسط الرشح والسعال، أنه يعانى نزلة برد حادة يستحيل معها مغادرة البيت.

اقترحت أن أمر عليه ويترك لي الاسطوانات مع أمن العمارة أو البواب مادام يسكن قريبا جدًا منا. أحضرت قلما وورقة لأتملى العنوان: 6 ش الشيخ محمد ندا- أبو النمرس! أبو ماذا؟

وصفة سهلة؟! كيف؟ من الدائرى والمريوطية؟ أو بعد البحر الأعظم أول شمال؟

شعرتُ أن حسين يتكلم لغة غير العربية، ويذكر أماكن لم أكن أعرف بوجودها على خريطة القاهرة، وأنا التي كنت أظن أن آريا قد عرضتنا لعجائب الدنيا السبع، حين اصطحبتنا إلى بيت سميحة السودانية في بولاق، وأخذتنا إلى موالد السيدة عائشة والسيد البدوى مرة أو مرتين!

"اركنى في ميدان الجيزة وخذى تاكسى!" كانت هذه هى الجملة الأكثر وضوحًا بين كلام حسين المُطعم بالسعال والمفردات الغريبة، التي تبدو عربية لكنها تشبه تعويذات العفاريت أو استحضار الجان!

كلما اقتربت منى سيارة أجرة أجد لسانى متلجما عن ذكر الكلمة التي سمعتها للمرة الأولى في حياتى منذ نصف ساعة، وأشك في ان السائق سينظر لي كمعتوهة، وربما سبنى وانصرف، فأميل ناحيته قليلا ثم أستقيم ثانية إلى أن تأتى سيارة أجرة أخرى!!

استجمعت شجاعتى بعدما أخذت شهيقا عميقًا لفظته "أبو النمرس في وجه أول سائق أجرة هدأ سيارته. تعجبت حين أشار لي أن أركبى دون أية أمارات تذمر أو استغراب على وجهه.

* * *

من يخشى على نفسه من اللوم يُوجه عدوانه للآخرين. هذا ما تقوله النظرية. أما أنا من لا تستطع لوم الآخرين فتوجه عقابها إلى نفسها. لهذا كنت أتلذذ وأنا أتعرض لهبدة تلو الأخرى في الشوارع المليئة بالمطبات والنتوءات وصياح الباعة وسباب البشر المتذمرين، والتلوث البصرى من أثر عمارات شاهقة لها لون الطوب الأحمر، تزين أسطحها أطباق

الساتلايت، وتجاورها بيوت قديمة على وشك أن تتهدم. شارع يؤدى إلى آخر والمشهد لا يتغير مثل متاهة، بينما حسين على الهاتف يُطمئنني أنني أسير في الطريق الصحيح، وأننى على وشك الوصول إلى نقطة النهاية.

تلك الهبدات وهذا السباب وقبح المشاهد هو ما كنت أود توجيهه إلى رياض؛ حين بدأ مرحلة التباعد مُتحجّجًا بأنه في أمكنة لا يقل وقعها غرابة على أذنى عن "أبى النمرس"، فمرة يقول أنا مع وردة في "أثر النبى وأخرى يقول "دار السلام" "قسم شرطة البساتين" ولما طلبت منه أن يفهمنى أين هو تحديدا، رد قائلاً: "تقدري تعتبريني في المعادي" وقد كان هذا هو ما قاله حسين وهو يوضح مدى سهولة عنوانه "إحنا على الناحية التانية من المعادي!"

المعادي هى الكلمة الأشمل والألطف التي استخدمتها "وردة" في السيرة الذاتية التي قدّمتها للعمل بشركة رياض. واستخدمها حسين للتقريب بين مكان إقامته ومقرّ سكننا.

تشبثت أكثر بالوصول إلى بيت حسين، ليس فقط من أجل الحصول على الاسطوانات النادرة، بل رغبة في حسين نفسه. المعادل الموضوعى لوردة!

قال: "الأسانسير عطلان والبواب مش موجود. اطلعى! "

صعدت السلم درجة درجة. وفي الظلام الدامس.. الإضاءة الأحب إلى رياض!

من الباب المتوارب لمحت رأسه ثم لم أر شيئا بعد ذلك، فقد تلقفني

في صدره وأخذ يبثني أنفاسه كأنما ليعوضني الفاقد من أنفاسي ولهاثي أثناء صعود السلم. وحينما عادت الكهرباء بثت الحياة في الأسطوانة التي كانت دائرة. عزف على الساكسفون. الآلة الوحيدة الذي لا يتضمن اسمها وصفها، بل سُميت على اسم مخترعها.

وكلما مر حسين على رأسي بعد هذا اليوم، سمعت موسيقى الساكسفون التي تدفقت من جهاز الـ"دي في دي" بصالة بيته ذات طراز الآرت نوفو.. مدفأة بتصميم عصري في الواجهة، حوائط بيضاء تبرز فيها ورود جصية، ويتخللها زجاج معشق بكل ألوان البهجة. رخام الأرضية تتوسطه دائرة من الموازييك على شكل زهور متداخلة الأفرع. كل الأشكال متموجة وذات خطوط منحنية ولها هيئة نباتات ملتوية. المقاعد، المنافذ، الكمرات. لا شيء حاد أو قاطع، وكأنّه يرد بصوت غير مسموع بهذا الديكور الداخلي المتثني في دلال على حدة كلمة "أبو النمرس"!

ترى ما نوع الجمال الذي منحتْه وردة لرياض لكي يتخلى عن "فيولا"؟ الآلة التي يرتبط بها عازفها عاطفيا أكثر من أية آله أخرى، والتي كلما طالت عشرتهما ازدادت قيمة وغلاوة؟!!

حكى لي حسين في حواراته القليلة أن منطقته تشتهر بقصة النمرس الذي غلب العفاريت، وأن أهالي أبو النمرس معظمهم من العفاريت. إذن كنت على حق حين ظننت الاسم تعويذة لصرف الجان.

كان يُذكرني بهذه القصة كلما ذهبت إليه، كمن يخيف طفلة ليدخلها

في حضنه، ثم يعود ويهمس أن "أبو النمرس كلمة تعود إلى اللغة الهيروغليفية وتعنى مكان العشق والغرام!

منذ أن وطئت قدماي شقة الآرت نوفو الكائنة بأبى النمرس، لم أعد أشهد شوارع القاهرة برفقة حسين في سيارته على صوت جيتار "باندیراس"، ولم أحضر معه عروضا مسرحية كامرأة الرجل الأول في المكان. الأمر الذي كان يطمس وعيى بفكرة أنه يصغرنى بسبعة أعوام. أنا التي انتميت إلى رياض الذي يكبرنى بثمانية عشر عاما، وتعاملت مع مروان على أنه طفل يلهو ببيانو صغير، لأنه يكبرنى بشهور. فكل ما نلته كان مشاهدة المنحنيات التي تداعب البصر من كل جانب بالشقة واسطوانة الساكسفون المغوية ولهائي وفحيح حسين. كما لم أحصل على تسجيلات جمال عبد الرحيم، التي اكتفى بأن أسمعنى إياها هى وموسيقى موزار المصرى، بعد أن فقدت رغبتى في اقتنائهما لأن مهجة كانت قد انخرطت تماما في عملها الجديد وأجلت مشروع برنامجها إلى الدورة الإذاعية التالية!

* * *

شهور تمضى ومذهب الأغنية ذاتها يُعاد، كلما ضاق بأنفاسه المكتومة، بعدما يلفظ كل صيحاته وتوجيهاته لممثلى الفرقة، ويعود لشقة الالتواءات الجميلة غير راغب في الكلام، فتأتيني منه رسالة صامته على المحمول: "النهاردة أنا مفتقدك جدًا. أ.. ف.. ت.. ق.. د..ك يا روح روح روحي!"

تترجرج بى السيارة في بطء، وأنا أسمع نداءات الباعة ومعاكسات فظة من قطيع صغار، لفظتهم مدرسة إعدادية للتو، وأتحرك بحرفية مكتسبة بين طرقات وشوارع المتاهة، وفي رأسي صوت يشبه صوتي مُرددًا في إصرار: "سأخبره أن هذه هي المرة الأخيرة!"

وما إن يتلوّى لحن السّاكسفون في الخلفية مصحوبًا بدفء الفحيح والتجوال البصري على تشكيلات نباتية من الجص والزجاج الملون، حتى أنطق بالجملة نفسها التي كانت تتردد في رأسي لكن ليس بقوة صمتها. أكسبها الصوت الهامس ميوعة تُخرجها على شكل تدلل أو تمنع، يمنحه حسين مكافآت صغيرة كرشوة عاطفية حتى أكف عن ترديدها: خاتم من الفضة على هيئة بيت نوبى بقبة واحدة وشباك مثلث. دبوس فضى عريض على هيئة بيوت نوبية بقباب متجاورة، يتخللها نخل من النحاس الأحمر مرصع بفص من العقيق. قرط على شكل بيتين متجاورين أحدهما فضى والثانى مطلى بذهب عيار 14.

سمعت من رياض ذات مرة أنهم كانوا يحكمون على الرجال الفراعنة حين يخطئون بعقوبات قاسية، تبدأ بالضرب وتنتهى بالإعدام. أما النساء فكانوا يحكمون عليهن بمنعهن من الكلام!

الروندو نفسه. كل شيء من رياض يحملنى إلى حسين، حتى يعود بى حسين إلى حالتى مع رياض. كتم الفوهة التي تصدر الصوت. الأول بتقريعه وصياحه، والثاني بمكافآته وصمته!

* * *

إلى البيت عادت تغريد كما سافرت. بلا زوج لكن بابنتين وخمار ورأس حليق، وصوت مهزوم يتضرع ليلاً بأدعية فك الكرب، ونهنهات تتخللها تكات أصابع الكى بورد وهى تدخل في مشادة نسائية صامتة على الفيس بووك مع امرأة أجنبية، كانت زوجة لزوجها قبل أن يقابلها وتكيد كل منهما للأخرى بتنزيل أكبر عدد من صور الغرام والوئام مع الفارس الغائب محور المنافسة. أما بطل الحدوتة فيرقد صامتا في مركز لإعادة التأهيل بعدما أصابته جلطة مخيّة ضربت مراكز الكلام وأردته قعيدا ومصابا بشلل نصفى!

* * *

على بريدى الإلكترونى تكررت رسالة تحمل عنوان "عاجل"، أقوم بإلغائها، في كل مرة تجتاحنى شهوة تفريغ صندوق بريدى الإلكترونى. شاهدت الرسالة للمرة الرابعة من المُرسل المجهول خلال أسبوع. فتحتها في تكاسل لأجد استغاثة مكتوبة بالإنجليزية ممن أسمت نفسها "واحدة من معجباتي"!

أنا واحدة من معجباتك وأشعر من طيبة نبراتك أنك الوحيدة التي ستعيننى في محنتى. تعرفت بشاب منذ فترة ونشأت بيننا علاقة أسفرت عن حمل. أنا الآن في شهرى الرابع وحبيبى ظروفه لا تسمح بالزواج منى. أنت الوحيدة التي يمكنها أن تساعدني!

واحدة من معجباتك.

* * *

طغى صوت التكات والصخب الصامت في تلك الليلة. تغريد بجهاز الكمبيوتر الخاص بها تنخرط في نوبة صياح إلكترونية مع غريمتها الافتراضية. وأنا في محاولة وضع حلول وفرض تساؤلات على تلك الفتاة المأزومة ذات الرسالة المبهمة. أى خلل دماغى أصابها وأسكتها طوال تلك الفترة؟ ما الذي أدخلها في متاهة تعرف أنها ليست سوى مجموعة من الانحناءات غير المؤدية إلى نقطة نهاية؟ ولماذا تترك أصحاب الخبرة من دائرة معارفها لتلجأ لشخص افتراضى برسالة مليئة بالأخطاء النحـ.... ووضع حروف الجر.. في غير محلها.. مثلما.. تفعل.. مهـ...جة!!!!

لابد أنني ملبوسة بروح امرأة فرعونية ارتكبت جرما ما في غير زمانها، وظلت تتناسخ في أجساد آخرين غير قادرين على الكلام، حتى تحصل على أقصى عقوبة.. الصمت!

رياض وحسين ومهجة. مقاطع مختلفة من كونشيرتو خانق. أتخلله أنا على هيئة سكتات محسوبة لكي يكتمل الروندو!

* * *

أسبوعان بالتمام لم يدخل خلالهما صندوق بريد هاتفى المحمول أيّة توسلات صامتة من حسين. أراجع الوارد من الرسائل لعل واحدة قد أتت و لم أرها أثناء إجرائى لمكالمة أو انخراطى في ورطة مهجة، أو محاولة تهدئة الأمور بين تغريد وآريا، أو في الهروب من محاولات رياض للعودة على هيئة رسائل مكررة ومكونة من حرفين على فترات متباعدة. تقول الرسالة "F.M" فأضغط على زر الراديو لأجد "منير" يغني "صوتك!"

* * *

مثل كرة الروليت ألف مع الماكينة الدوارة لاستقر على الرقم (3).. حسين! أضغط على رقمه في المحمول ثم أدوس بقوة على زر الإقفال حتى لا أسمع بقية الرسالة المسجلة التي تُشيع في الروح خيبة أمل كبرى.. "الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلـ....

أُعاود مراجعة الوارد من الرسائل وأستعيض باجترار رسائل قديمة:

– "هل تعلم سمو الملكة أن شعبها يفنى شوقا ليراها؟"

"ماذا يملك الطائر الضليل للنغمة الجميلة في حياته أكثر من "أعبدك؟"

اشتقت للكلام الساكت على هيئة رسائل تشتعل شوقًا، وعزف الساكسفون تتخلله كلمة "لولا "، التي اخترعها لتدليلى، واحتواء دافئ من مزيج الفحيح وطقطقة خشب المدفأة بآخر الصالة، بينما تتقلب عيناي على مشاهد العناقيد النباتية الملتوية.

هل سئم تململى من التحول الذي طرأ على علاقتنا بعد ظهور شقة "أبو النمرس" أم تذمرى من بعد المسافة ونتوءات الطريق وتحرشات الأطفال؟ أم تراه قد لمح اندهاشاتى الصغيرة التي كنت أداريها بالنظر إلى أسفل حين يفاجئنى بمفردة تشبه كلمات دادة عطيات، أو حين أخبرنى أن ليس له أى دور في تصميم الصالة، وأنها نسخة منقولة عن ديكور صممه شخص غيره من مسرحية قام بإخراجها؟! هل زرعت في نفسه خوفًا من أن أفاجئه ذات لحظة وأتركه، فقرر القيام هو بالمبادرة؟ أو ربما دخلت "ترديفة" جديدة على معزوفتنا فأخذت تجذبه إلى دائرة أخرى، ربما يجوب معها

شوارع القاهرة إلى أن يستقر مستريحا في صومعته وتتولى وحدها القيام فيما بعد بالرحلات المكوكية الصغيرة!!

السؤال الأكثر شيوعًا في برنامج "اسألوا آريا" "هل أطالبه أن يعود لي إن اختفى فجأة؟"

إجابة آريا: "إياك!! إن فعلت ذلك سيعود لفترة ثم يختفي ثانية!"

خالفت القاعدة وفعلتها. حتى وإن اختفى ثانية، المهم أن يعود ولو لفترة!

من رسائله استوحيت نصوصا بعثتها له على هيئة رسائل صباحية يومية.

– "هل يعلم الشعب العظيم أن سمو الملكة تتوق شوقا لتراه؟"

– "الملكة التي تشرق بشمسها على شعبها تُرسل محبتها إليه وتتوق لأن تدفئه ببعض من نورها!"

في اليوم الخامس اهتز الهاتف بالرنّة الخاصة بالرسائل:

– "فلتتفضّل سموّ الملكة!"

* * *

الدوامة التي ابتعلت حسين كانت دائرة من نوع آخر. دائرة انتخابية يسعى إلى ترشيح نفسه عنها في مجلس الشعب. بثها كل طاقاته الكلامية. دعاية ولافتات واجتماعات ولجان.

لم يعد محمولي يتلق أية رسائل واردة. استبدلتها برسائل صادرة منّي بأن.. "الملكة ترغب في رؤية الشعب!"

* * *

احذرن ممن يُدلّلكنّ باسم شائع مكون من حروف أربعة. يتشابه فيه حرفان ويتخللها حرف مد مثل توتا.. كوكا.. لولا!! اعرفي أنه قد يستخدمها في أمكنة أخرى توفيرا للطاقة العاطفية وإيثارا للسّلامة!" همسة في آذان مستمعات "اسألوا آريا"، قالتها وهى تنهى حلقتها في عصبية ثم تنظر في غضب إلى الصور الفوتوغرافية المعلقة في دهليز الإذاعة الحلزونى. الصور مكتوب أسفلها السيرة الذاتية لرواد المذيعين والبرامج التي قاموا بإعدادها والحلقات التي قدموها والمناصب التي تقلدوها.

علا صوت آريا عن الطبقة المسموح بها في طرقات الإذاعة ساعات إرسال الهواء، وظلت تلعن عدم تقدير أولى الأمر لها، لأنها كانت تبث مئات البرامج وآلاف الفترات، وهى ليست على قيد التعيين الحكومي الرسمى – ثم أخذت تقدم طلب أجازة تلو الآخر وتمارس حنقها على العالم بداخل البيت.

* * *

تحقّقت النبوءة العاطفية لـ"آريا"، فقد عاد حسين فقط لـ"فترة"! اعتادت عيناى بعدها على الدوران بحثا عن أثر له في إعلانات المسارح ولافتات الدعاية الانتخابية، وبداخل أيّة سيارة يتوقف محركها عند منزلقات كبارى القاهرة.

الرقعة المسكونة بالعفاريت في المأثور الشعبى وتعنى "مكان العشق والغرام" بالهيروغليفية، صارت مسرحا لأحداث جرائم الشرف والجوع والتعذيب في صفحات الحوادث: "أسرة تقتل فتاة خنقا ثم تحرقها دفاعا عن الشرف في "أبو النمرس – "بائع متجول يقتل ابنه خوفا من الجوع في أبو النمرس – "حفلة تعذيب داخل قسم شرطة أبي النمرس – مذبحة سائق المقاولون العرب في أبي النمرس! تشيع رائحة الثاناتوس بقوة – غزيرة الموت – صارت المنطقة جديرة بأن يمسك رياض ميكروفونه متقدما فوجا من الأجانب الذين تستهويهم سياحة الفواجع ويقول: "هنا كتمت أنفاس" فيولا لتعيش.. لكى تظل على قيد الإيروس وتمارس غريزة الحياة.. الحياة التي عاشها حسين مع أخرى ظهر معها في صورة بصفحة الفن في جريدة صفراء، واضعا يده على كتفها، أثناء بروفة مسرحية تقوم بأول بطولة مطلقة لها فيها، رغم سنوات عمرها الأربعين. حملت خلالها اسما فنيا لم يُحدث رنينًا في الآذان.. "ليلى عبد الستار لذا بعد فشله في تجربة العمل النيابى وعودته إلى حبه الأول.. المسرح.. منحها فرصة أن تكون المرأة الأولى في عرضه الجديد، بالإضافة إلى دبلتين واسم شهرتها الذي تفتق عنه ذهنه الإبداعي: "لولا"!!

* * *

وبعدما تم نصلي على الهادي

نبينا محمّد ضاوي الجبين

12

عيان يا ولاد.. عيان يا ولاد

عشمان يا طبيب.. إني أبرى وأطيب

طبيب لإجراح.. هملني وراح

مروان: مرواااااان! أمازلت نائمًا أم ضايقك قرع الطبول والتواءات الساكسفون وصخب الجاز وتنهدات الفيولا؟

مرواااااان!!

لا أحد يسمعني؟ ما هذا الصمت الموجع؟! متى تكوّن كل هذا الفراغ؟

أوومم! أومممم! أومممممم!!

أوومم تارا! أومم تارا!

لن يفيد ترديد هذه الترنيمة الهندوسية، وأنا على هذه الحالة من التوتر رّبعي ركبتيك يا آريا.. أقصد يا رباب يا فيولا!

أومم.. أومممممم..

ضعى كفيك عليهما واغمضي عينيك. اسحبى نفسًا عميقًا. احبسيه لثوان. الفظيه ببطء.

ردّدي المانترا في هدوء..

أووووومممممم..

صوت اللانهائية والخلود.

أومم تارا.. صوت المشاعر الأنثوية والهيام.

امتلئى بالصوت يا فيولا. اجعليه يغمرك بفيض من نور، ويشيع في ردهات كيانك. دعيه يتغلغل أكثر.. أعمق.. أعمق حتى يلامس كل ما انحبس في غور نفسك.

أوومم.. أومممم.. أومممممم!!

دعيه يحركك ويجذبك من أعمق قاع إلى أعلى سماء، وفي صعودك وارتقائك ستتقلبين بين الأحوال، وتخترقين الحجب فتبصرين ما يراه العارف، وتسمعين ما لم يمر على الآذان.

أومم تارا.. أومممم.. تارا!!!

أشعر بتنامى روحى وتناغم نبضات قلبى في موسيقى رائعة مع إيقاع الكون. تتفتح مسامى مع كل ذبذبة للأوومممم، حتى تذوب في أعماقى، وتصير خلفية هادئة لأصوات أخرى تتسلسل في هدوء إلى وجدانى الصوت تلو الصوت:

الأوّلة: صوت من مقام الرست الفخم الذي يليق بتلاوة آيات القصص وفن التجويد. وفي الصوت نفسه إيقاعات زنجية ذات سلم خماسى ممزوجة بتأثيرات إنجليزية شعبية تحدث هارمونية بديعة. إنه صوت "ريدا".. تغريد

أختي. يبدأ نقيا عاليا كما اعتدت سماعه على الموجة المتوسطة، ثم يخفت شيئا فشيئا، وكأنه نبرات أم حانية تغالب النعاس وهي تحكي لطفلتها حدوتة قبل النوم.

"فيولا يا بنت آرية على حد قول سميحة السودانية. أراك تضمرين لي بعضا من حسد، لأنني أتحول بسلاسة في طبقات الصوت. أورثتك آريا هوسها بالأحبال الصوتية وأوتار الكلام، فغضضت الطرف عن أن حلاوة النبرات أهدتني وجعا تلو الآخر. هل نسيت يوم أن ارتديت أجمل فساتيني ووضعت وردة حمراء خلف أذني مثل الأفلام القديمة لكي يتعرف عليّ مستمع برنامج "غنوا مع ريدا" الذي ظل يكلمني على الهواء، وبعد الهواء لشهر كامل، إلى أن نشأت بيننا شبه قصة عاشها في خياله، على نغمات صوتي الذي جعله يتصورني ربة جمال إغريقية أو شابه مغوية لعوب، ثم رأى الوردة الحمراء خلف أذن الفتاة التي دخلت مقهى سويس شاليه كيفما اتفق وظلت الفتاة تنتظر وتنتظر، فسألت النادل عن شاب يرتدي بنطلون أزرق وقميص زهري ويحمل باقة ورد.. ناولها النادل باقة الورد وأبلغها رسالة الشاب الموجزة شفهيا: "آسف!"

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أصادف فيها موقفا كهذا. ناهيك عن نظرات خيبة الأمل التي كنت ألمحها في عيون المعجبات من المستمعات المراهقات إن صادفتني إحداهن، وعرفت أن هذا الجسد ينتمي إلى صوت" تغريد رفعت" أو مذيعتها المفضلة "ريدا"!.

لا ينشغل بال المرء إلّا فيما يفتقده، وآريا كانت لا تفتقر إلى شيء. فقد كانت تملك جاذبية وسحر اللاتينيات، إلا أنني لا أرى أي هوس كان

يعشش في خلاياها ويجعلها تصنف البشر وفقا لأصواتهم، مع أنها رزقت بالبحة الفاتنة التي أسرت وجدان آلاف المستعمين. لم تلتفت إلى ضعف خصلات شعرى المجعدة، ولا إلى اكتناز جسدى بالكيلو جرامات إلى أن صرت مثل كتلة صب. ربما ارتأت آريا أن كل هذا لا يهم طالما أنني غير مرئية. ما يهم هو ما يثبت في الميكروفون ويتحول إلى ذبذبات صوتية عذبة تطرب السامعين.

حملت غصة في قلبك لأن الإيقاع الهادئ لصوتك لا يطربك وتمنيت أوتار تتلون بحيوية تليق بـ "ميس شابة تحكي الحواديت لصغار يمرحون.

"غنوا مع ريدا" "ارقصوا مع ريدا" برنامجان كنت أشبع بهما رغبة آريا الجامحة. قرابين أقدمها لها مثل هدايا نساء الزار للأسياد، حتى ترفع ضغطها عنى وتدعنى أعمل بالمشروع الأمريكى، الذي يوفر لي المال لأحقق حلمى بالسفر والدراسة. ثم تأتين أنت وتمسكين لي برباتك مثل رواة السيرة وتغنين لي مواويل عن الأرض والعرض، وأنني قد صرت "عواد" مصرى يبيع أرضه بتقارير يومية يقدمها للغريب! أنا أيضا كنت أقدم القرابين للسيد الخواجة. توحدت بالمعتدى كي يمنحنى السيولة التي ستوفر لي الهروب من أسر الحوائط الأربعة العازلة للصوت، والمايك الذي يمنحنى عشرات المفتونين بنبراتى، والذين يتركون لي باقات الزهور، ولقطات متكررة لظهورهم وهم يغادرون المقاهى خلسة ورسائل مختصرة مع النادل.. حين يرون شكلى!

لَم تحسرت يا فيولا أنت وأمك حين أرسلت لكما خبر زواجى؟ هل لديكما عشيرة كبرى من الأهل ستغضب إن لم تقيما عرسا هائلا تدعوهم

إليه؟ أم أزعجتكما فكرة لف رأسي وجسدي بخمار يخفي مالا يجذب أحداً أصلاً؟

نعم زوجي هو الذي لف رأسي. جعلني مخمورة بأفكاره المضادة لأفكاركما، وأن النغمات التي تصدرانها للبشر قد تثير شهوات النفس، وتميل بها عن الهدى وتصدني عن المناجاة الروحية! على الأقل قد تعرفت على ديني. قولي لي إلى أي ملّة ننتمي؟ إلى دين آريا أم عقيدة عمتك هدى؟ تفننت كلاهما بشكل غير مباشر في وضع حاجز نفسي بيننا وبين طقوسها. إلى أن جاء زوجي الذي فتش بداخلي عن الإنسان الكامل صوتا وصورة.

شممت أخيرا رائحة رجل جاء ليبقى، وعرفت ملمسه ومذاقه. إلا أنني وجدت نفسي أنتقل من زنزانة أصغر إلى زنزانة أكبر من العيب والحرام والمكروه. وأن الناس يكيدون لنا، وأن أحذر مكر الصديق وأن الطعنات ستأتينا من أقرب الناس!

شاء القدر أن يقع في يدي ذلك التقرير الطبي عن إصابته بعقدة الاضطهاد وخضوعه لسنوات لعلاج نفسي ينتكس بعده - فيصير أسوأ حالا! حملت حقيبتي وأبنتي وجئتكما لاجئة بلا مأوى وبلا مستقبل، بعد ما جردني من كل ما ادخرت، فلا "ريدا" بقيت" تغني ولا "الدكتورة" تغريد يمكن أن تكون! صار ونيسي في المساءات الفارغة تلك الخناقات الافتراضية بيني وبين طليقته على "العنكبوتية" إيميلات ونشات وحائط فيس بووك مليء بالألفاظ البذيئة والكيد النسوي، لتثبت كل منا لنفسها أنها مازالت تمتلك شيئا تحارب من أجله - حتى وان كان هذا الهدف

نصف رجل... منح في وقت ما انصاف نساء مثلي ومثلها الإحساس بنبض الحياة!

ياللى ضحكك زمانك راح يضحك عليك على طول
واللى يبكيك يا ولدى راح يبكى عليك على طول
حرص من الخصم مرة.. أما الحبيب على طول!!

* * *

والثانية:

بعدما سكت صوت تغريد ساد صمت صار يتكاثف حتى أصبح له لون وإحساس الظلمة

دوم دوم تاك
دوم دوم تاك
أبيه رياض؟ أنا خائفة! احميني من الظلام!
دوم دوم تاك تاك
دوم دوم تاك شششششش!!!
الأمر قاطع وصريح بأن أفوت من سكوت إلى سكوت
دوم دوم تاك شششششش!!!

ينبثق من الظلام والصمت العميق صوت ذكورى من مقام العجم، المعبر عن الصخب والرجولة في استعراضات الجيوش يقول أشياء أظن أن أبيه رياض كان قد قالها على فترات متباعدة من حياتنا

ها أنا أسمعه يناديني ويقول:

"رباب! رباب! هل أنت هنا؟ لا تردى.. دعيني أعرف بنفسى.. سوف أتحسس طريقي في الظلام، حتى إن وجدتك سأمرر يدىّ على

كل أنحائك لطمأنتك في مقابل أن تمنحيني الإحساس بأنك راضية، وأن تضميني في حضنك لكي تنزعي عني الخوف وتشعريني بالأمان.

دوم دو دو دوم تاااك

دوم.. دو دو دوم تاااك

بس ياولد يا رياض! بطّل شقاوة! الواد ده عمره ما هينصلح! لازم ينضرب علقة علشان يسكت! تاك! تاك! تاك! تاك!.

يلجأ رياض الصغير – أنا – إلى الظلام في ركن الغرفة لأخفي بكائي الذي إن لمحه، والدي العسكري، ربما عاقبني بمزيد من التقريع. أتوق في هذه اللحظات لأنامل أمي الرقيقة التي كانت تمسح بها على شعري، وتشدو مثل حمامة حزينة لتحملني على النوم "نام.. نام.. وأدبحلك جوز الحمام" أمي الفتاة ذات الستة عشر عامًا التي زوجوها أبي – الرجل العسكري الصارم – الذي يكبرها بسنوات عشرين – عاشت لتهدهدني وتدللني بأغنيات وترنيمات تدل على حزنها لسنوات عشر. إلا أنني كنت أقول لنفسي لابد أنها راضية طالما تغني وتحوّل أثواب من القماش الأصم إلى فساتين تنطق جمالاً وأنوثة، تزهو بها وسط صديقاتها وتمنحهن إياها في مقابل المال أحيانًا.

تاك. تاك. تاك. توالت خبطات صديقتها الأقرب الشيخة "نزهة" على باب منزلنا لتمضي معها ساعات مطولة أثناء غياب أبي في نوبتجياته، وترحل بفساتين مبهجة تظهر جمال منحنياتها المخبوءة تحت العباءة السوداء.

حينما كنت أرى الجنيهات تنتقل من يد الشيخة "نزهة" إلى يد أمي

كنت أشعر أن لنزهة يدًا عليا عليها، وأنهما ليستا صديقتين بل سيدة وخادمتها. حتى بعد أن صرت رجلاً ناضجًا، أصبحت أرى أي أموال تُمنح لامرأة مقابل عمل كأنها منحة يتعطف بها سيد على خادمته.

تلاشت النبرة الحزينة من أغنيات أمي، لتحل محلها كلمات حانقة توجهها نحو أبي.. دوم. دوم. دوم. دوم. فيرد لها الكيل مكيالين. تاك. تاك. تاك. تاك. ليخلو البيت منها بعدها. طارت العصفورة المغردة مع ربيبة نعمتها إلى بلدة الأخرى. لأبقى بأمر عسكري حبيس البيت برفقة والدي، الذي حرص طوال مدة خدمته كأب على إصلاح الاعوجاج الذي– على حد قوله– قد لحق بي من تدليل أمي.

وحين خمدت قرعاته ونقرزاته تمامًا بأمر إلهي، عادت الحنون الرقيقة لتستقر على السرير الذي كانت تهدهدني عليه. إلا أننا تبادلنا الأدوار، فقد كانت أوجاع جسدها لا تهدأ سوى بتربيت يديّ الحانيتين على كل أنحائها وتفكيك عضلاتها المتيبسة برفق وصبر، حتى تتمكن من النوم في استرخاء وسلام، إلى أن نامت في وداعة نومتها الكبرى.

تمكن منّي هاجس إزاحة الألم عن كل النساء الصغيرات، والوفاء بعهود الحنان التي أقطعها على نفسي تجاههن، بداية من سوسن ابنة عمتك وحتى "وردة" التي ظننتني خالفت عهدي معك حين رأيتني أربت بدقات رقيقة على ظهرها!.

خدعك الفارق العمري بينك وبيني، وصوتي الجهوري المشتق من مقام العجم وشعيرات رأسي البيضاء. اشتهيتني أبالك، بينما كنت أريد في كل الأوقات أمًا تطمئنني في الظلام وترسل نبرات ناعسة مثل لحن كمان

أذهب بعدها في نوم هادئ عميق، لأنها عني راضية، حتى وإن تطلّب ذلك أن يتم "ذبح جوز الحمام"!.

* * *

صاحبت صاحبي وتاري صاحبي مصاحب
وصاحب اتنين لم يورد على صاحب
العين لها ألف أما القلب له صاحب

* * *

والثالثة:

دق على دفوف بأيد منقوشة برسومات الحنة، وأياد أخرى تصطك بالتصفيق. يقترب الصخب من أذني رويدًا رويدًا لأسمع صوت أغنيات أفراح.

يا ليلة الدخلة يا سيدي
خد السلام من إيدك لإيدي
يا ليلة الدخلة ولقاها
وقال سمعوني حسن لغاها

ترتفع أغنيات النسوة المجتمعات على باب العروسين، ويهللن بمصاحبة دفوفهن بينما مهجة بالداخل تشرف رجال عشيرتها. وحين يخرج فارسها حاملاً منديله الأبيض المبتل بوردها الأحمر، تعلو الزغاريد وينفخ العازفون مزاميرهم ويدقون الطبول.

يا بنت يا مبنتة يا عاشقة مرسي
تحت من قصتك قلل على الكرسي
يا بنت يا مبنتة يا عاشقة إسماعيل
تحت من قصتك طرح العنب والتين

صوت مهجة الرقيق يأخذني مع مقام النهاوند، من أول السلم الموسيقى إلى أعلاه، ثم ينزل بي إلى أسفله وهي تدعوني عبر الهاتف من بلدتها الأقصر – إلى عقد قرانها على ابن عمها بعد خطبة استمرت أسبوعين فقط. تمنحني مهجة دهشة تلو الدهشة وتربط لساني بعقدة تلتف على عقدة حتى يتثبت على وضع أعوج بداخل حلقي!

فيولا!!!! فيووولا!!!!

اسحبي نفسًا عميقًا من الهواء المحمل بخيباتك وأحزانك. إحبسيه لثوان ثم الفظيه تنهيدة كبرى وبعثريها أشلاء في الفراغ!.

أوممممم أوممممم.. أوممممم

يطغى صوت ترنيمة توحدك بلا نهائية الوجود، فتستسلمين لهدأة ممتدة. يصعد صوت جلاجل وبلابل صغيرة تتدلى من شخليلة للفت انتباهك. تتمايل الجلاجل يمينًا ويسارًا مثل راقصة فلامنكو تصدر رنينًا عذبًا بالكاستانييت، فيهتز كيانك بفرحة غامضة. تبتسمين ثم تضحكين وتضحكين من صميم قلبك محركة رأسك وجسدك ويديك مع الشخليلة، ولا تريدينها أن تكف عن الاهتزاز في حركات نصف دائرية سريعة لمداعبتك، حتى وإن تقطعت الجلاجل وانفرطت حبات تتدحرج في اتجاهات شتى على الأرض!!.

نعم يا فيولا هذا هو صوتي. أنا مهجة ذات التون الرفيع المبهج الذي استخدمته كحلية حين كانت أيامك فارغة وادعيت أنك تمنيته لنفسك. أنت فقط تمنيت لو كانت توقفت نبراتك وكيانك كله عند هذه المرحلة الصوتية المصاحَبة بدقات الإكسيليفون الملون، والرنين البدائي للبيانو

الخشبي الصغير فترة ما قبل اللجلجة والتلعثم، لحظة سقوط الأب وخروج آريا بكما في متاهات الموالد والزار، بينما كان المكان الأنسب لطاقتك السمعية هو بسطة السلم المزركشة بنونوات القطط. أنت نفسك من قلت ذلك.

نعم أحببتني كشخشيخة تداعب طفولتك المختزنة بداخلك، وحين فاجأتك بأنني لست مجرد حفنة من الجلاجل المفرحة، بل أنثى تفتقد الكلمات الحانية واللمسات العذبة ووجدتها لدى الشخص الذي شدني بعيدًا عنك يوم حفل "الليلة الكبيرة"، وأهداني نفسه بعدها عوضًا عن أم متوفاة وأب وإخوة عار عليهم أن يظهروا ما يبطنون من لطف أو رقة مشاعر إن وجدت، أردت أن أفهمهم أن العار ليس في التعبير عن مكنونات النفس العذبة، فأتيتك وأتيتهم بعار كلاسيكي مثل عار "هنادي" ولم أجد سواك لتغيثني بحل غير أن تلجئني للخال الذي سيرميني إلى "الوبا" بدأ الخراب ينخرك تدريجيًا حتى انهرت تمامًا بحجة أنني أهديك الحسرات والدهشات التي تعقد لسانك. هذا لأنك منذ وقعت أذنك على صوتي واهتزت أوتارك بالفرحة، لم تقبلي سوى أن أظل الشخليلة التي لا يمكن أن تتحول يومًا إلى أنثى مثلك!

أنت يا فيولا من وضعتني على طريق الخيبات. أوهمتني بأن هذا الصوت الذي يطربك جدير بأن يبث في مكبر ويصدر إلى العالم على موجاتك القصيرة والمتوسطة، في برنامج تعلمين أن قماشته أعرض من تلك الذبذبات والجلجلات الضعيفة.. "كونشيرتو بلدي" أو "تانجو وموال" حلمك أنت بعالم ينتشلك من سنوات العمر الأولى التي عششت بداخلك

وأدخلتك في دوامات علاقات لا تليق سوى بطفلة!

قفي أمام المرآة وقولي بصوت مسموع: أنا فيولا بنت آريا. أصنف البشر مثل أمي وفقًا لأصواتهم. فالنبرات الجديرة بأن تفوت في ميكروفون، يجب إما أن تكون مبحوحة مغوية أو ناعسة فاتنة أو حيوية متدفقة. أما الجلاجل فلا تصلح سوى أن تكون حلية في كورس للأطفال!.

انهمرت دموعك ذات يوم أمام رجلين يعتليان منصة في مسجد، ويغطي كفيهما منديل ناصع بينما يردد أحدهما "زوجتك ابنتي البكر الرشيد على سنة الله ورسوله" لأنك كنت قد فقدت الأمل في أن تسمعي تلك الجملة تتردد عنّي أنا بعدما ابتليتك بصدمتك الأولى فيّ، وجئتك مستغيثة كامرأة خربتها الرغبة في الانتماء لحالة حتى وإن كلفها ذلك الانتماء لبقية البشر.

نعم كنت تستفين لي النصائح الرنانة. إياك والأحمق والشحيح والأناني والخسيس والـ والمتزوج! لكنك كنت تلفظينها مثل فقرة في برنامج إذاعي قام بإعداده شخص غيرك، وأنت فقط تقرئينها على الهواء، وتنسينها فور انطفاء اللمبة الحمراء، لأن ذهنك مشتت فيما ستفعلينه بعد انتهاء الفترة. هل تذهبين إلى "إيروس لتستمعي إلى صدى دقات كعبك واضطراب نبضات قلبك، والكروان الذي يدعو، والقطة التي تنادي داوود في الظلام، أم ستدورين في دوامة الروندو على خلفية من نغمات الساكسفون في أبي النمرس.. أرض العشق والعفاريت؟!!

والآن وقد انتهت حدوتتي وفقًا للنهاية التي أردتها، وفارقت الأحمق الأناني المعقد المتزوج، لتنتظر النسوة على باب غرفة زفافي إلى الشاب

الزين الأعزب المتزن، ويزفون منديلي الناصع بدليل العفة التي استعدناها معًا، لم أجدك حولي وتهديني أنت الخيبة الثانية لأقف كطفلة وحيدة بلا أم وسط عشيرة مخيفة من الرجال!

تقولين تخليت عن الحلم وخلعت فستان الفلامنكو، ورميت الصنجات واسكت الجلاجل فصرت أخرى لا تدري من تكون؟ ما أدراك؟

هل خمنت ذلك من محتوى الرسائل التي تأتيك تلقائيًا، لأنك على قائمة بريدي حين تفتحين صفحاتك الإلكترونية، فتفسرين الـ Status الخاص بي على أنه يعبر عما يعتمل بأغوار نفسي؟

جلاجل تقول: "ومن يعمل سوءًا بجهالة أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيمًا"

جلاجل تقول: "إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النّاس شيئًا ولكنَّ الناس أنفسّهم يظلمون"

تتعجبين لأنني أطلق على نفسي في حياتي الإلكترونية، الاسم الذي يصف رؤيتك لي، ومع ذلك ألبسه ثوبًا مقدسًا مثل خمار أختك تغريد؟ ألم ترين الصنوج في موالد الأولياء ورقصات الذكر التي تحمل حركات الاستدارة نفسها التي تصدر عن الشخليلة؟ ألا تتذكرين حين كانت تصحبك آريا إلى الكنيسة فيطربك صليل الكاسات والجلاجل والناقوس والأجراس التي تعلن عن بدء الصلوات؟ أم تراك تتألين لأنني أقحمت نفسي في دائرة خشنة مع ذكور العشيرة في البلدة البعيدة عنك، بينما روحي لاتزال متعلقة بالمستحيل برغم كل تحذيراتك، فتجديني أدوّن خيبتي على صفحتي الإلكترونية وتأخذين بعدها نفسًا عميقًا يأبى أن يخرج تنهيدة ارتياح؟

جلاجل تقول: " لا أعلم إن كان من الوفاء أن أظل أتمسك بعهود قطعتها لأناس لم يعودوا يكترثون لحلم أثق باستحالة تحققه، أم أنه درب من دروب الحماقة التي أصر عليها!"

* * *

بيانوا وطبلة مع ساكسفون وجلاجل
مـــروان وريـــاض وحـــسـين ومهجة

مقطوعات قصيرة يتفنن عازفوها في إظهار مهاراتهم للفوز باستحساني، فيتلبسني وهم الترقي في المقامات والنغمات كرفيقة وحبيبة وأنثى مرغوبة، بينما أنا المثبتة في مقعد المشاهد الذي يحوي الطفلة فيولا، التي تحلم بروضة للأطفال تلعب فيها دور الأم، فيتحقق حلمها على الوجه الأكمل مثل نهايات حواديت أبلة فضيلة وأفلام ديزني، وستمر بحجمها الضئيل كأميرة في مملكة خرافية من الأبناء الذين يكبروها بعشرات السنوات.

حبايبي الحلوين مروان وحسين ورياض ومهجة صباح الخير

ماما فيولا ربما تتركككم لفترة، لأنها تود أن تقضى بعض الوقت برفقة الكبار. إن كنتم تودون الذهاب معها فانتظروها في الحلقة القادمة. وإن أحببتم أن تبقون في عالمكم الخيالى وتعيشوا في دنيا الحواديت، ستختار لكم ماما فيولا أمّا أخرى تقص عليكم حدوتة اليوم. ما رأيكم في ماما آريا؟

طبعا تتذكر طنط آريا يا مروان.

رياض. أعرف أن بينكما شدًا وجذبًا، لكن حتما سيقهر أحدكما الآخر في النهاية وتعيشان في وئام.

حسين. أنت لا تعرفها سوى كإسم إذاعى، لكننى على يقين أنها ستروق لك مادامت تسبقك في العمر بسنوات كثيرة، وتشبه أمك التي ترتدى صورتها في سلسلة مخبأة تحت ملابسك.

مهجة.. جلاجل.. أقدم لك آريا أما ومجيبة عن علامات استفهامك اللانهائية، وإن لم تجديها بالبيت، أديرى المؤشر على الموجه 87.4FM لتجدى صوتها يتدفق غنيا فاتنا في برنامجها الشهير "اسألوا آريا"!

آريا ستبهجكم وتنزهكم في الموالد وحلقات الذكر، وتسليكم عند سميحة السودانية في حفلات الزار، وتجهد أباكم عشقًا حتى يموت لتتفرغ لكم وتنفردوا بها.. أمًا خالصة! ربما تجدون لديها بعض القصاصات الغرامية، وكلمات الغزل من رجال لا تعرفونهم، لكن لا يهم مادامت ستوفر لكم عيشة رغدة، وتضمن لكم تعليمًا تختاره بعناية وفقا لذوقها وخبرتها، وستهديكم عملاً تحبه هى ولن تزعجكم بعدها بـ "كخ" أو "دح"!

خذوا آريا! من يريد آريا؟ هه؟ من يريد آريا؟!!!

* * *

والرابعة...

أكاد أسمع صوت سميحة السودانية، وهو يأتي نحوى من بعيد صادحا بسلمه الخماسي، وأكاد أرى يدها السمراء العفية وهى تدق بقوة على الدف وترفعه وتنزله وتديره ولا تكف عن الغناء، إلا أن دقاتها الآن ليست مثل أى من الدقات السبع التي تستحضر الأسياد الذين نعرفهم.. سفينة وياورة وسلطان بنى ماما وجادو وركوشة!

الشخاليل أيضا تهز القلب ببهجة غامضة، لكنها ليست الأصداف المدلاة من حزام عم مطاوع راقص المنجور وكبير عازفي جوقة سميحة. الدقات لها إيقاع مصاحب بأكورديون وساكسفون وشخاليل في صنجات بأيدي مطرب أسمر رشيق!

الشعور بالإيقاع لا يتحول إلى تفقير فقط بل خطوات أقدام محسوبة. واحد اثنان.. واحد اثنان ثلاثة أربعة. إنها خطوات مثل البشر لها أسماء: صالصا.. ما رينجي.. تشاتشا.. تانجو!! الممسوسة ترفع ذراعيها وتحرك رأسها بالتفقير مرة ثم تدوس على قدميها وتنقلهما في تناغم محسوب مرة أخرى.

دخان المباخر والتفاف النسوة حولها يخفي وجهها، لكنها مازالت تمزج بين تطويح الجسد والدق بالكعوب، وكأنها غائصة في كابوس تعافر من أجل الخلاص منه، إلى أن تبدأ في التمايل المنظم مع موال سميحة تارة، ومع خطوات التانجو تارة، وتظل تتمايل وتدق وهى تلف في دوامات تجذبها إلى عالم سحيق لا يراه سواها.. تفصلنا عنه أراض ومحيطات ويقول أهله أشياء لا يفهمها إلاها. تتلقفه بذراعيها وكأنه حبيب قد حضر بعد طول غياب ثم تسقط مغشيًا عليها...

آرياااااا آرياااااا

آريا الغائبة عن الوعى فتاة ذات بشرة نحاسية، وبشعر كثيف متموج، وجسد يكتنز بأنوثة مضغوطة في ثوب محبوك كاشف لفتنة الاستدارات التي تكاد تصرخ وتقول أنا مجرد بنت عادية كأى بنت لاتينية هناك في البلد البعيد، وأشبه بناتكم أيضا لكن سحر النظرة وبحة الصوت يجعلكم

تتساءلون هل هى منا أم غجرية ضالة، حملتها بلاد ثم حطتها هاهنا فذابت بيننا في عذوبة مثل نغمة في معزوفة؟

آريا الملقاة على أرض الحضرة بعد التمايل والدوران، تحملها سميحة وانشراح الأوديا ويضعانها فوق فراش وثير.

"رقيتك واسترقيتك يا آريا يا بنت حوا وآدم من عين كل اللى شافك ولا صلاش على النبى

توقد سميحة شمعة بجوارها لتكشف المحجوب الذي سيدخلها وهى نائمة في عالم أسيادها، لترى وتسمع ما انقطعت عنه منذ سنين ومازال قلبها مربوطا عليه بسحرٍ خفيّ:

العام 1940 ليلة صيفية حارة في شقّة بمدينة "فيلا دى ماريا" بمقاطعة قرطبة في الأرجنتين، تشبه كثيرًا شقة في شارع "يحيى إبراهيم" المتفرّع من 26 يوليو بالزمالك في العام 2010.

فى الشقة البعيدة والزمن الأبعد بنات صغيرات خمس يلهين حول أم تطرز مفرشًا بورود ملونة وفراشات، وأب ينظر في زهو إلى راديو خشبى ضخم موضوع فوق رف أنيق مثل نصب تذكارى. "دومينجو فرناندز" الصحفي بجريدة "بوينس آيرس هيرالد" ووالد البنات الخمس. يضع ابنته الأقرب إلى قلبه "آريا" على حجره، ويحكى لها حواديت سردها عليها مرارا عن أصول عائلته التي تضرب بجذورها في أراض بعيدة تدعى بلاد الشام، وعن تحقيقاته الصحفية التي رد فيها الظلم عن المهمشين والعبيد، وجال البلاد لتغطية مشروعات قامت بين أرجنتينا ودول أخرى عاشر وعشق أهاليها.. الجزائر وبيرو واستراليا ومصر. ثم يختتم "دومينجو

الحكى بقصته الحبيبة والتي أسمعها للطفلة آريا عشرات المرات. حكاية الراديو الموضوع في جلال فوق الرف.

"لم يوجد جهاز راديو سوى في عشرين بيت فقط في الأرجنتين كلها عام 1920 – وقد كان هذا المذياع أحدها، حين نطق للمرة الأولى فأدخل صوت المذيع البهجة الممزوجة بالدهشة إلى قلوب كل أفراد أسرتى حين قال: "سوسيداد راديو أرجينيتنا ينقل إليكم في منازلكم عرضا موسيقيًا حيًا لأوبرا "بارسيفال" لـ "فاجنر" ننقله على الهواء مباشرة من مسرح "كولسيو" بمدينة "بوينس آيرس"!!

* * *

الشابة آريا دومنجو تضع ذراعها اليسرى حول كتف الشاب الوسيم "ألفريدو" وتلامس كفها اليمنى أصابعه التي يلفها بها في مهارة، فيبعدها عنه ثم يضمها إليه على مقطوعة تانجو حالمة تعزفها أوركسترا "دارينزو"! وفي الضمة الأخيرة يغيب معها في قبلة وداع طويلة قبل سفرها في اليوم التالى لاستكمال بحثها عن الزار في دول البحر المتوسط، لتقدمه كموضوع ساخن في مجلة "نويتيسياس التي تعمل صحفية بها!

* * *

الشابة آريا التي اكتشفت أن الوقائع الصادمة في حياة النساء هى التي تُؤدي بهن إلى طقوس الزار، تجيئها برقية حزينة تقول إن حادثًا مروعًا قد وقع على الطريق السريع في مدينة "فيلا دى ماريا" حيث انقلبت الحافلة التي كان يقودها "ألفريدو" وأودت بحياة السائق والركاب والذين كان من بينهم كل أفراد عائلة الصحفى الأرجنتينى "دومنجو فرناندز

ولأن "آريا" التي لا تؤمن بالانكسار كانت قد عزمت على ألاّ تسحقها الصدمة، وكان أمامها طريق من اثنين: أن تلجأ مثل من هم في بلادها لمعالج يخلصها من كوابيسها التي تطاردها حتى بعد استيقاظها، وتظل تتخبط في مخاوفها إن اختفى هذا المعالج أو ألغى الموعد– وإما أن تكمل ما بدأته وتندمج كواحدة من أفراد الجماعة التي كانت قد احتوتها بالفعل، حيث تدق لها سميحة النقرات وتغنى لها الأدوار التي تهدهدها، مثل أم تدخل طفلتها في النوم. فتدور وتترنح على الإيقاع إلى أن تقع في ميتتها الصغرى ثم تفيق كإنسانه جديدة متصالحة مع أرواح في عالم ما ورائى، يشبهون أناسًا أحبتهم، وكلما افتقدتهم كررت الطقس وخرجت من الزمن الأرضى إلى زمن أسطوري، تتوحد فيه مع أفراده لتقدم لهم صوتها قربانا حيث قررت إسعادهم به عبر الأثير اللامتناهي على الموجه القصيرة والمتوسطة، لتثير إعجابهم ودهشتهم وهى تنقل لهم الأغنيات والحفلات على الهواء المُحمّل بنسيم ليل القاهرة.

لكنها أبدًا لم تنس التانجو حتى بعد مرور عامين وفي عز انخراطها في استكمال بحثها عن الموالد القبطية وزيارة الكنائس والأديرة، والتي انتقلت منها إلى موالد أولياء الله الصالحين.

وفى مولد السيد البدوى حين أبهرها الموكب السائر على ضوء المشاعل، والمنشدون يغنون الموشحات، ورجال الطرق الصوفية يرفعون بيارقهم الخضراء، ويطربها المزمار والدفوف والصنوج الممزوجة بالمدح والتلاوة، تفتح حقيبة يدها لتشترى سمسمية وفولية تحملهما معها كتذكار محبة لزملاء العمل، فلا تجد كيس نقودها – وحين تصرخ وتشير نحو طفل

صغير يجرى بما نشله منها، تصادف "رفعت سرحان" – ذلك الشاب الذي يحمل بعضا من ملامح "ألفريدو" فيتلبسها جنى التانجو، بينما يهلل المريدون في الخلفية "لا إله إلا الله" ويتجمعون في دائرة يميلون فيها في بطء، ثم تصبح حركاتهم سريعة وعنيفة إلى أن يغشى على بعضهم وهم في حالة انتشاء، مثلما تتمدد "آريا" على سرير وثير في بيت العائلة بطنطا بعد أن أخذها أبى وقدمها إليهم كزوجته التي عقد قرانه عليها منذ لحظات في المولد!!

سجلت الأسرة تلك الواقعة كحادث أليم في تاريخها، و لم يخفف من فداحته سوى خبر أكثر إيلاما وهو وفاة أبي نفسه، لتقحم بعدها عمتي هدى نفسها بقوة على حياتنا.

* * *

تتر المقدّمة: موسيقى صالصة ضاجة بالحياة وينساب فيها البيانو ناعما وتظهر الكمان متيقظة وطازجة.

راديو القاهرة يقدم

"اسألوا آريا"

برنامج أسبوعى إعداد وتقديم:

آريا رفعت

مرحبا بكم أعزائى المستمعين في برنامجكم "اسألوا آريا" سنبدأ حلقة اليوم بمقطوعة موسيقية كما تعودنا، إلا أنني أعتذر عن الرد على أية تليفونات على الهواء، فسوف تخصص هذه الحلقة للرد على تساؤلات أخذت تطن وتئز مثل نغمة نشاز في رأس ابنتى فيولا!

- موسيقى -
(ليبر تانجو)

يـا نـور جـمـالـك يـا عـم سيد
أفـوت الحـمـا وأقـول عـلـى مين
كـل مـا أنـادى وأقـول يـا سيد
تـشـتـال عـنـى الحـمـول الـتّـقـلين

موال ينشد في مولد سيدى أحمد البدوى، يشتبك في ذيل موسيقى التانجو مثلما اشتبكت في لحظة انتشاء صوفية أصابعي في أصابع رفعت سرحان، وزوّجته نفسي وسط جلبة المولد. جذَبتني ملامح الوجه التي تحمل بعض من سمات "ألفريدو" صخب المولد وجلبة المريدين حجبت ملامح صوته، الذي لم يتبين لي جيدا إلا بعد أن كنت قد ألقيت بكامل جسدى بين ذراعيه في تانجو طويل على موسيقى الموال.

فيولا! عازف الساكسفون الأسمر، الذي يتمايل برشاقة في الصورة التي تعلو فراشي ليست لأبيك كما أوهمتك. فقط وجدتك تنظرين إليه في تطلع وتدمع عيناك حين تغنى البنت الصغيرة مع أبيها في المسرحية "رايح أجيب الديب من ديله" فاخترته رمزًا يروق لك.

تغضب أختك تغريد منى لأننى أقيم البشر وفقا لأصواتهم وأستبعد أشكالهم. المرة الوحيدة التي خرجت فيها عن هذا النسق كانت حين شدتنى ملامح وجه أبيك فحسبته حبيبا مفقودا، وحين مد لي يد العون ظننته يطلبنى إلى ساحة الرقص فارتميت بين ذراعيه على لحن تانجو كان

ينساب في رأسي أنا فقط، لأن الموسيقى الفعلية كانت صخب المولد وإنشاد الموال.

لا تتعجبى إن كنت قد وهبت حياتى لمن ظننته يطلبنى للمراقصة، فقواعد التانجو في بلدى البعيد تعتبر كتابا مقدسا للحياة اليومية. أو هكذا كان في سنوات تفتحى على العالم، حين كنا نحلم بتطبيق ما يقوله الكتاب.

الرجل في التانجو ليس مجرد ذكر إنه الإنسان النبيل الشهم الواثق من ذاته الراسم البارع لخطواته، وليس إبن العمدة المدلل الحائر بين الجلباب والبدلة الشارکسين البيضاء بين قضاء أسبوع في الدوّار وآخر في شقة استأجرها له والده في حى الزمالك، ليعود إليها قبيل الفجر متعللاً بمذاكرة أو بيوم عمل شاق.

راقص التانجو يقود دفة الحياة بفرحة، وعليه أن يضمن السعادة لشريكته، ليس أن يتمدد على فراشة الصباحى بحجة أنه لا يجد عمل يناسب إمكانياته، ويتركها تسعى من محطة إذاعية إلى جريدة أسبوعية، إلى ترجمة فورية لتوفر لابنتيها تغريد ورباب، حياة تشبه طفولتها في بلدها البعيد!

حين يسير راقص التانجو على الرصيف برفقة امرأته يجعلها تمشى في الداخل حتى لا تكدرها مضايقات الطريق، وحين يدخل معها إلى مكان عام يدعها تسير أمامه خلف النادل. وبعد أن يجلس يضع ذراعه حول كتفها ليعلن للجميع أنه موجود هنا لاحتوائها. أما أن يسير رجلها في الطريق العام ويتركها تهرول خلفه ممسكة بابنتيه، وحين يريد أن يلفت

انتباهها لأمر ما لا يناديها باسمها، بل باسم أحد إخوته الرجال، فهذا يخالف تماما أخلاقيات الراقص الحقيقي.

أما حين تشتد به الرغبة في المراقصة، وتنساب الموسيقى الحالمة، يكون عليه أن يقود امرأته إلى ساحة الرقص. ينظر في عينيها لثوان ويتبادلان حوارًا هامسًا، إلى أن تبدأ في الإحساس مثله بالنغم. يبدأ هو بالعناق الخفيف تاركا لها حرية اختيار مدى التصاقه بها. يثير الإيقاع في ذهنه خطوات ووضعيات للرقص، فيقودها في رقة لتغيير مواقعها، بتلقائية مدروسة ويبحر بها إلى أعماق نفسه ونفسها.

لكن أن ينبض إيقاعه وحده برغبة عنيفة يباغتها بها، ويفرض عليها التحاما تاما بجسد ثقيل، وأسنان حادة وأيد قوية تعتصر ذراعيها، وكل أنحائها حتى تصدر أصواتا عالية تشرخ سكون الليل، وتثير جنونه أكثر فيعلو صوته على صوتها حتى يصل إلى مسمع صغيرتها، فتحسبها الصغيرة استغاثة من أبيها الذي تعذبه أمها، بينما الأم هي التي تئن في تأوهات مضغومة يحسبها هو غنج من فرط اللذة!

وبعدما تتوقف الموسيقى يحتضن راقص التانجو شريكته لثوان، وكأنها كنز قد عثر عليه ثم يسير ببطء عائدًا إلى المنضدة مفسحا لها الطريق لكي تسير أمامه. لا أن ينقلب على الجانب الآخر من الفراش مصدرًا لها ظهره تاركها تغوص بمفردها في أضغاث أحلام منغمة وخطوات راقصة لا تكتمل مع حبيب غائب في عالم ما ورائي.

الوجه الآخر للتشابه بين رفعت وألفريدو غير ملامح الوجه، كانت روح المغامرة التي تلبستهما وأودت بحياتهما ظنا من كل منهما أن

ما يفعله سيجعله يحظى باستحسانى. رفعت بتجاهله لأوجاع قلبه العليل وانخراطه في نوبات حسية عنيفة. وألفريدو بتصميمه على قيادة الحافلة لينقل أسرة دومنجو فرناندز أبي، إلى مسكنهم الجديد، برغم تحذير الأرصاد الجوية من القيادة في ذلك الصباح الباكر لانعدام الرّؤية!

* * *

ميزة التانجو الأرجنتينى أنه سخى في العطاء، ويكشف لك ما حجب في داخل نفسك، لكنه لا يمنح هذه الميزة إلّا لمن يجتهدون في السعى. هو اتصال حميم بين شخصين فقط، لكن لا يظهر كماله وروعته إلا حين يتم في ساحة للرقص. مكان اجتماعى يضم بشرًا كثيرين. وبأداء الحركات المحسوبة والمرتجلة، يرحل الجميع بعد الحفل في سعادة، سواء من شاركوا أو من تفرجوا. لذا كان من الضرورى وجود العمة هدى لا لترعى شئون البيت مثلما أشيع لحفظ ماء وجهها، بل لأنها كانت بلا مأوى بعدما تخلصت منها زوجة ابنها وأنكر عليها إخوتها الرجال حقها في الميراث. ربما كان لسانها هو بيت دائها وهو الحبل الذي لفته حول رقبتها، لكنه كان أيضا يدًا قوية وجسرًا امتد لينتشلك يا فيو لا من دوامة التلعثم بالاتفاق مع طبيبك المعالج بعد أن اكتشف أنك تستمرئين اللعبة التي قد تتحول يومًا إلى مرض حقيقي!

سميحة السودانية كانت توفر حفلات تانجو بديلة، طقس جماعى منغم عوضنى في لحظات انكسار عن دفء الأسرة المفقودة، وحميمية الشقيقات وهدهدة الأم. ولم يكن ما فعلته سوى رد للجميل حين رأيتها على باب الجريدة لاجئة من جهل أسرة تعيدها مرارا إلى زوج يضربها نهارًا

ويضاجعها ليلا ويصر على ذلك حتى يوم وفاة ابنتيهما الصغيرة. فآويتها بشقتي الصغيرة التي كنت قد استأجرتها أول وصولي إلى مصر – وصرنا نسعى معًا في حفلات الزار – أنا لعمل بحثي، وهي للتخلص من أوجاع روحها، إلى أن انفصلت عني تمامًا لتعيش وسط الأجواء التي جذبتها وحررتها من نوبات حزنها، فصارت كوديا محترفة ومطببة نفوس شعبية!

في التانجو الأرجنتيني ليس ضروريا أن تكون على معرفة سابقة بمن ستراقصه، وليس بالضرورة أيضا أن ترغب في معرفته بعد انتهاء الرقصة. فهو فقط وسيلة لتتعرف على ذاتك من خلال الآخر، لذا يجب عليك أن تتخذ أكثر من شريك للرقص لتغوص في نفسك أكثر وتكتشفها وتعبر عنها بطريقة جميلة دون الحاجة إلى كلمات. لذا حين كنت أعبر عن نفسي في العثور على حلول لمشكلات الغير في "اسألوا آريا"، كانت بحة الصوت التلقائية تفتن الأسماع، وتعود لي على هيئة خطابات وأشعار من معجبين ولهانين، تذكرني بأنني مازلت أنا نفس الفتاة اللاتينية. البنت التي برغم إجادتها للعربية، لم تته تمامًا خلف الموال. والأروع أنني كنت أعبر عن امتناني صمتا بالاحتفاظ فقط بتلك الوريقات في درج جانبي مهجور لتبث حرارتها الإحساس بالحياة في أنحاء المكان بلا صوت!

الصور المتتابعة بطول دهليز الإذاعة لرموز نثرت طبقات صوتها بثًا مباشرًا وحلقات مسجلة ومراسلات لحروب وتغطية لاحتفاليات، كانت تصيبني بغصة يأس وكلما وقعت عليها عيناي أتساءل إن كان حائط الدهليز يمكن أن يتسع يوما لصورة "آريا" التي أسقطت هويتها آريا دومنجو فرناندز" لكي تتصالح مع طبيعة المكان ويبهج صوتها

ولو مستمعًا واحدًا يألف وقع اسمها الجديد " آريا رفعت"، حتى وإن لم يضع مذياعه في إجلال فوق رف عال! إلا أن قواعد التانجو هى ما منحتنى الأمل في ظهور بارع يبهر جميع الحاضرين في النهاية.

حتى وإن كنت مبتدئا فعلى الراقص المبتدئ أن يمتلئ بالموسيقى، ويتمرن.عمفرده إلى أن يتمكن من خطواته وعلى الراقصة أن تعرف كيف تؤدى خطواتها بدون أن يقودها أحد، أو يسندها شيء، حتى وإن كان حائط دهليز حبيب يكرم ذكرى من عبروه جيئة وذهابًا بتثبيت صورهم في مكان عشقوه.

للدوران في ساحة الرقص أصول يجب أن تحترم: أن يكون بعكس عقارب الساعة في حارات دائرية تسمح بألا يجور راقص على مساحة آخر، على أن يترك الوسط للمبتدئين أو من يقدمون استعراضا. وحيث إن ساعة"آريا رفعت" قد بدأت في الدوران العكسى، كان لزاما على أن أترك منتصف الساحة للمبتدئين وللاستعراضات الكبرى التي تسقط عليها بقعة الضوء.. لـ"فيولا رفعت" لتبث في برنامجها الجديد "تانجو وموال"!

التانجو الذي ولد في بوينيس أيرس القرن الماضى، وظل يفتن العالم بأكمله يومًا بعد يوم، قد جعل بالأساس للفتيات الأرجنتينيات اللاتى يأسرن الرجال باستدارات صدورهن وأردافهن المّوزعة في إبداع مع انحناءات ونحافة وسطهن. آريا رفعت التي شارفت على السبعين لن تغادر التكوين الجسدى لـ" آريا دومنجو فرناندز بقدر استطاعتها وستظل حتى آخر لحظة في عمرها ترمز لبنات بلدها. ستحافظ على كل بوصة من هذا الجسد الأسمر اللامع، حتى وإن وجدت باستدارته الأعلى كتل متورمة

خبيثة، لن تشفى منها إلّا ببترها ثم بكيّ آثارها بإشعاعات ومحاليل تذهب بخصلات شعر متموجة عاشت العمر كله لتحافظ على كثافتها وبريقها. وبما أن عقارب زمنها تتحرك الآن عكس الاتجاه وفقا لقواعد التانجو، فلن يمهلها العمر وقتا كافيا لاستعادة كل ما ستفقده، إن رضخت لعلاج اشعاعي وكيماوي يجردها من مقتنياتها الجسدية الحبيبة، ويحرمها فيما تبقى من الزمن الأصلي من أن تملأ عينيها بقطع أثاث ولوحات زيتية وساعة حائط على هيئة كوخ خشبي في مسكنها القاهري، الذي يشبه كثيرًا شقة أسرتها القديمة في مدينة "فيلا دي ماريا" في قرطبة.

لذا ستنسحب في هدوء إلى غرفتها وتكتم أنينها ثم تلفظه تذمرًا واستياء في أحيان، وحلقات إذاعية ذات نجاح مدو في أحيان أخرى.

* * *

على راقص التانجو أن يشد جسده في رفعة، حتى وإن كان يتدرب بمفرده ويراقص نفسه. فلتمثل على نفسك وتتحرك في رشاقة وثقة وكأنك راقص عظيم. كن كذلك في وجدانك، فقَدَمك وحدها لا تهم. إنه إحساسك الذي يحركك وشموخك الروحي هو ما سيجعلك تترك انطباعًا رائعًا. أعزائي المستمعين أرجو أن تكونوا قد استمتعتم معي بحلقة اليوم، مثلما أمتعتموني بصحبتكم على مدار أربعين عامًا. لكم مني كل المودة ووداااااااعا!!!

"آريا رفعت"

– تتر النّهاية –

ونهاية خطاب – وجدناه تحت وسادة "آريا" مُرفقًا بوصية.

* * *

أُقفل التحقيق الذي أجرى معى بعد إذاعتى لحلقة خاوية إلا من عبارات تمجد قيمة الصمت، وأسفر عن إيقافى عن "الهواء لمدة شهر على اعتباره عرَضا هستيريًا مثله مثل موال المسجد الذي أخذت أردده خلف الصندوق الخشبى الملفوف ببيرق أخضر مكتوب عليه لا إله إلا الله في صلاة الجنازة على روح آريا، والتي كانت قد انتقلت من عقيدة إلى أخرى في نفس حفاظها على سرية مرضها، وكأن لسان حالها مازال يردد الجملة التي قذفتها في وجه امرأة الكنيسة، منذ أكثر من عشرين عاما وصارت تُصبّح وتُمسي بها تغريد أختى، وهى تشير بإصبعها إلى قلبها ثم تمر به حول جسدها وتهز رأسها في حركة لاتينية تقليدية وهي تقول "ربنا هنا مش هنا"!

* * *

فى القاعة المحتشدة بوجوه لشخصيات عامة وكوكبة من الرموز الإذاعية، جلَسَت إلى يميني عمتى هدى بعد أن أراحها رياض في مقعدها برفق وإلى يسارى جلست تغريد وهى توجه رأسها نحونا وتجلس في وضع جانبى حتى لا يعلق عما لحق بها من تغيير، أى من زملائها القدامى. رياض يرمقنى عن بعد ويفلت نظرات متحسرة وزاخرة بحنو أبوى.

من بين الكواليس يظهر حسين مخرج الحفل، ويوجه لي ملاحظة بأن علىّ أن أجلس في الصف الرابع وليس في هذا المقعد، ويسحبنى في رقة من ذراعى مثلما يمسك عازف الساكسفون بآلته ويتمايل بها

الميكروفون المواجه لمذيعة الحفل يردد أسماء وصداها، يعقبها تصفيق

قوى وصفارات تكاد تثقب أذنى حين يصعد أصحابها لتسلم شهادات تقديرهم على خشبة المسرح

موسيقى صالصا ممتلئة بالحيوية

راديو القاهرة يقدم

"اسألوا آريا "

إعداد وتقديم آريا رفعت

يخفت تتر البرنامج تدريجيا ليحل محله تصفيق هستيرى حار.

ينفتح فكاي في حركة تصويرية بطيئة، ويتثبتان على هذا الوضع وأبتلع زفيرًا على هيئة شهقات صغيرة ساكتة، والتصفيق يعلو ويعلو حين يتردد صوت المذيعة في تأكيد مخيف.

جائزة تقديرية للإذاعية الراحلة آريا رفعت

تتسلمها ابنتها الإذاعية فيولا رفعت

يقودنى نصفى الأسفل في تمهل إلى خشبة المسرح، وفمى على حالته المتخشبة لايزال، والسيرة الذاتية لـ "آريا" تبث عبر الميكروفون أثناء تحركى البطيء. تفسح لي مذيعة الحفل مكانها أمام الميكروفون لألقى بكلمة مع آخر شهقة صغيرة أكون قد امتلأت بنفس عميق حار ألفظه آهة صارخة لا أدرى كم من الوقت استغرقت قبل أن أجد نفسى جالسة في حديقة هذه المصحة أخطط للهرب وأكلم مروان في خيالى!!

* * *

تُعاودنى الآهة وتملأ حلقومى وتخرج على هيئة صرخات متتالية تجرح

الليل، مثل صيحات السوبرانو التي كنت أسمعها تتردد في الدهليز خارج غرفتي على مدار الأيام السابقة.

أصوات أقدام مرتبكة وحركة غير عادية لمرضى الفترة الليلية، يقتحمون الغرفة ويسوقونني في طرقة طويلة إلى مكان مجهول، بينما تتشكل صرختي صعودًا وهبوطًا في مقامات صوتية متباينة

مروان! مروااااااااااان!

أين أنت؟ هل يسوقونني إليك في مكانك السرى الذي تراقبني منه؟ أم سيأخذونني إلى حبس انفرادى جديد، يقيدونني فيه بأحزمة جلدية ويُعرّضوني لصعقات كهربية مؤلمة كالتي نشاهدها في الأفلام؟ هل سيحقنونني بمحاليل تهمدني تمامًا، وتشل أجزاء من الذاكرة فأبقى هاهنا إلى ما لا نهاية؟

مروان! مروان! قل لهم إن الصراخ ليس دائما دليلاً على الجنون! اخبرهم أن الصيحة الاولى للمولود هى أفضل ما يحدث له، فإن لم يفعلها خلال خمس دقائق من الولادة قد يتلف جهازه العصبى! اعتبروني ولدت منذ دقائق خمس مثل نساء الزار اللاتي يصرخن أحيانا قبل أن يغشى عليهن، ثم يقمن متعافيات ويقام لهن سبوع كوليدات ويقدمن فيه الحلوى والمكسرات ويشعلن فيه شموعًا في قلة ملونة للأسياد!

مروان- لماذا يسحبني هؤلاء الممرضون في جمود مرعب؟

ألم يكن إصدار أى صوت هو ما تسعون إليه؟! ألا تعتبر صرختي الممتدة هذه صوتًا؟ مروان! ماذا أفعل لكى أجعلك تسامحنى على تطاولى عليك؟ أتريدنى أن العب معك بالبيانو الخشبى الصغير، وندق بالعصا

على الإكسيليفون، أم نضع القطط مشمشة وفيولا ودقدق أمامنا ونقلد نونواتها؟!

مروان! هل اعتقدونى مجنونة لأنني كنت أرى الأشخاص كآلات موسيقية؟ أليست السيمفونية حوارًا مُفترضا بين الآلات يصنع دراما من النغم بدلاً من الكلام؟

مروان! دعهم يتركوني، وسأثبت لهم أنني أعرف أن أقول أشياء كثيرة. سأنشد لهم المواويل وأطربهم بالأغنيات

آه يـــا لـــيـــل يـــالـــيـــل
يا ما طال الليل آه يا ليل يا ليل
آه يـــا شـــجـــرة الـــلـــيـــمـــون
يـــا مـــعـــقـــلـــة الـــمـــجـــنـــون
عـــايـــزة عريسى يـــكـــون مـــأمـــون
يـــســـهـــر مـــعـــايـــا الـــلـــيـــل

أستطيع أيضا أن أُغني في عذوبة

صوتك حبيبتى هو بابى على الحياة
لـو يتقفل يبقى حلم العمر تاه
انـــدهـــيـــلـــى.. اوهـــبـــيـــلـــى
بـــإيـــديـــكـــى دى شـــط الـــنـــجـــاة
صـــوتـــك أرق مـــن الـــنـــايـــات!

مروانّ قل لهم إننى أعانى فقط خرسًا هستيريًا. مجرد عرض عابر نتيجة صدمة. تمامًا مثل نوبة التلعثم التي داهمتنى أمام ميكروفون إذاعة المدرسة، حين علمت بنبأ وفاة والدى. يمكنك أن تستعين بعمتى هدى ولسانها

السليط لتعجل بشفائى. بل أنا أستطيع أن أشفى نفسى بنفسي، حتى انظر!!

شهيق – زفيـر

شهيق – زفيـر

مروان! إنّ قدمي تُجر من تحتى، لكن لا يهمّ. على راقص التانجو أن يتخيل أنه يشد جسده في رُقي، ويعتبر نفسه ماهرًا حتى وإن كان يراقص نفسه! أعدك أن أقف في شموخ وأتخيل أنني أُراقص شابًا مبتدئًا يجرب حركات جديدة. أنت مثلاً. لذا سأظل متيقظة لإيقاعى الداخلى ومنتبهة لكل لفتة منك، حتى أتحرك في سلاسة وتفاوت مع قدميك فلا تدوسنى أو تهدد سلامتى. مروان! باستطاعتى أيضا أن أراقص رجلاً محنكًا يجتاحه فيضان الموسيقى، فينقل إلىّ إحساسه الطاغي بالإيقاع، ولا أمانع في أن أُثبت لك ذلك – الآن وفورا. فلتأت لي بطبيب زميل لك أو حتى نزيل يُعاني عمي هستيريًا مثلاً. سأراقصه مثلما تحرك " آل باتشينو بفتاته في حرفية في فيلم "عطرامرأة" ها هى موسيقى التانجو تدور في رأسى وأنا بين ذراعيه! أكاد أفتح عينى بالكاد! لقد حملنى عمقه إلى أعمق أعماقي حتى صارمن الصعب أن أرى أيا من المفردات المحيطة!

تانجو "بور أونا كابيزا" يصعد بي في خفة في دوائر فوق السحاب، وعيناى منغلقتان تماما. أغوص في عالمى الداخلى حيث تُذيب الموسيقى وتلاحمنا كل الفواصل بين جسدى وجسده فيصيرنى وأصيره!!

* * *

أشعر بانسحاب إبرة من ذراعى، وتنميل في أطرافي وأنحاء جسمى المستلقى على أريكة من الجلد الأحمر والأسود ألوان التانجو، يجاورها مقعد وثير فارغ!! تُرى هل سأفتح عينى لأجدك تجلس عليه حين يزول تأثير تلك الحقنة المخدرة، ونستكمل حوارنا الذي بدأ منذ أكثر من عقدين يا مروان؟؟؟ مروان! مروااااااان!! مروااااااااااااااا... ن!!!

يـــا حـــلـــو يـــا عـــريـــســـنـــا
يـــا أبـــو طـــاقـــيـــة نجـــمـــة وقـــمـــر
الـــلـــه ســـاعـــد في زمـــانـــى
لاســـكُـــن مـــصـــر وابـــنـــي جنينة
وفـــــوق الجـــنـــيـــنـــة قـــصـــر
واطـــلـــب مـــنـــادى يـــنـــادى
يـــنـــادى كـــل يـــوم في الـعـصـر
والـــلـــى لـــيـــه غـــزال يـحـجـزه
أحـــســـن غـــزالى في مـــصـــر!

* * *

تمَّت

(1)* قصيدة إيقاع الصالصا للدكتور خليل فاضل.

(2)* : مقتطفات من قصيدة جنون الباليه للشاعر شعبان يوسف.

(3): المواويل من التراث الشعبى.

السيرة الذاتية

مي خالـد

– كاتبة مصرية.

صدر لها:

مجموعة قصصية "أطياف ديسمبر الهيئة المصرية العامّة للكتاب 1998.

رِواية "جدار أخير"، ميريت 2001.

مجموعة قصصية "نقوش وترانيم"، دار شرقيّات، 2003.

رواية "مقعد أخير في قاعة إيوارت"، دار شرقيّات، 2005.

رواية "سحر التركواز دار شرقيات، 2007 وتُرجمت إلى الألمانية والإنجليزية.

مجموعة قصصية "مونتاج"، دار الدار، 2009.

تانجو وموّال

انظروا من تتكلم !!! نزيلة في مصحة نفسية تعاني من فقدان القدرة على الكلام، وتسخر من تركيبات نحوية خاطئة أو لثغة بسيطة عند من يُفترض أن يكونوا معالجيها! لا ليس الأمر كذلك، فالمشكلة تكمن في أنني أشعر بأنهم قد أتوا لكي يسمّعوا ما حفظوه في دروسهم، وأنهم لم ينفتحوا على نصف ما شاهدته. الوحيد الذي يملأ الدماغ هو الدكتور معتز. عمره الوسط الذي يعفق وتر الشباب والنضج معاً. انغراسه في قاع الحياة، إضافة إلى أسفاره ودرجاته العلمية من دول العالم "الأول". سيمفونية كلاسيكية عالية بنغمات شرقية. إلا أنه كالمدرب الماهر على آلة ما. يلقى تلميذه بالعلم ولا يبدأه بالرفق، فيستوحش التلميذ العلم ويفقد الرغبة في التعلم ! لذا أفقدني الشغف بأن أبوح له بأنني قادرة على الكلام، وأن كل الحروف والنغمات تدور في رأسي مثل اسطوانة عالية الجودة. فقط لا يوجد الجهاز المناسب لتشغيلها!

الغلاف: بسمة صلاح